المشرق

السنة الاربعون — السنة ١٩٦٢

لبنان

في عهد المماليك*

بقلم المحامي ابرهيم عوّاد ، دكتور في الحقوق

المماليك قوم من الارقاء البيض منشأ البعض منهم ، المعروفون بالمماليك الاتراك ، في قفجاق من شمالي آسية من البلاد القزوينية والقوقاسية ، تشتتت قبائلهم على اثر غزو المغول لبلادهم. فاغتنم تجار الرقيق الفرصة واشتروا من اولاد اولئك التائهين اجملهم صورةً ، واقواهم بنيةً ، وانورهم عقلًا ، وباعوهم من امراء سورية وملوكها الايوبيين . فالملك الصالح الايوبي ابتاع منهم نحو الألف ، وجعل منهم رؤساء دولته وحرسه الخاص ، ورجال بطانته ، ودعاهم بالحلقة ، لأنه كان لا يبرح

---

*) محاضرة أُلقيت في نادي الشبيبة الكاثوليكية في بيروت .

محاطاً بهم . فتمكنوا بمدة قليلة، بما كانوا عليه من المواهب الطبيعية، من حصر مصالح الدولة الهامة في ايديهم، ومن الاستيلاء على حصون البلاد المصرية المنيعة، فابتنوا بامر الملك الصالح الايوبي في جزيرة الروضة، في النيل، قصوراً عظيمة منيعة، فسموا بالمماليك البحريين . وعندما اشتدت سطوتهم، استولوا على السلطنة، وقتلوا سلطانهم المعظم ابن سلطانهم الصالح الايوبي، وحكموا مصر وسورية من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٣٨٢ مسيحية .

اما منشأ القسم الآخر من المماليك فهو في نواحي بحر قزبين ايضاً، في بلاد شركاسية، ويعرفون بالمماليك الشراكسة . وقد اقتنى سلاطين المماليك البحرية عدداً وافراً منهم وجعلوا سكناهم في الابراج، فلقبوا بالبرجيين. ثم ازدادوا عدداً وقوة الى ان تمكنوا من نزع الملك من السلاطين البحريين، وجعلوا سلطاناً عليهم المملوك برقوق، ولقّبوه بالملك الظاهر . وهو اول سلطان من المماليك الشراكسة، ومؤسس دولة المماليك الثانية التي تولت السلطنة في مصر وسورية من سنة ١٣٨٢ الى سنة ١٥١٦ مسيحية . حيث انتصرت الجيوش العثمانية، بقيادة السلطان سليم الاول، على جيوش المماليك بقيادة السلطان قانصو الغوري بمرج دابق، قرب حلب.[١]

قسم المماليك سورية الى ستّ ممالك، او نيابات : دمشق، حلب، حماه، طرابلس، صفد، الكرك . وجعلوا على رأس كل مملكة او نيابة حاكماً أو نائباً .

وكان لبنان الشمالي وكسروان تابعين لنيابة طرابلس . والبقاع، وبعلبك، والشوف، والغرب، وبيروت، وصيدا كانت تابعة لنيابة دمشق . اما لبنان الجنوبي وصور فكانا تابعين لنيابة صفد[٢] .

١) جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث، مصر، ١٨٨٩، الجزء الثاني، ص ٢ و ٤ و٤٢ و٤٣

٢) Gaudefroy-Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamlouks*. Paris, Paul Geuthner, 1923

ان لبنان في عهد المماليك لم يكن ، كما هو الآن، ذا حدود ثابتة ومعينة بدقة . ولكنه كان يتألف من مجموع اقطاعات على رأس كل منها امير، او مقدَّم لبناني،يتولى الحكم فيها منذ زمن بعيد ، من ايام السلاطين الايوبيين والصليبيين ومن قبلهم ؛ فثبّتهم في حكمهم واقطاعاتهم السلاطين المماليك الذين حلوا محل الايوبيين والصليبيين في مصر وسورية .

وهكذا كانت أزمّة الاحكام والادارة الداخلية في لبنان ، في عهد المماليك ، اي خلال القسم الثاني من القرن الثالث عشر وطيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، محصورة في ايدي اللبنانيين ، كما كانت في ايديهم على ايام الايوبيين والصليبيين . فالقضاء ، والمالية ، والشرطة ، والمحافظة على الأمن ، والجيش اللبناني ، كان مرجعها الوحيد السلطات اللبنانية وحدها .

ان عصر المماليك في لبنان يجب ان يقسم الى قسمين : القسم الاول يتناول الجزء الثاني من القرن الثالث عشر، من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٣٠٥، سنة خراب المماليك لكسروان . والقسم الثاني يتناول القرنين الرابع عشر والخامس عشر بكاملهما الى سنة ١٥١٦ ، تاريخ انتصار العثمانيين على المماليك في مصر وسورية .

والقسم الاول اهم بكثير من القسم الثاني بالنسبة الى اللبنانيين ، لأن هذا العهد ما هو الا عهد مقاومة عنيفة ومسلحة، وسلسلة حروب متواصلة دامية . زد على ذلك ان الصليبيين قد خسروا في هذا العهد بقية ممتلكاتهم في لبنان .

من هم سكان لبنان في الجزء الثاني من القرن الثالث عشر ؟ وما هي علاقاتهم بعضهم مع البعض ؟ وما هي اسلحتهم ؟ وما هو تنظيمهم الحربي بالنسبة الى اعدائهم المماليك ؟ واخيرًا كيف تمكن المماليك من اخضاع المقاطعات اللبنانية الواحدة تلو الاخرى ومن تحطيم قلعتهم الاخيرة ، كسروان ، المعروفة بالعاصية او الخارجة ؟

هذه هي الاسئلة التي نسعى ان نجاوب عنها :

كان يقطن لبنان في هذا العهد اقليات لها ديانات مختلفة تعيش بالقرب بعضها

من البعض ، ذات وحدة اجتماعية واقتصادية وسياسية قد اقتسمت لبنان على الشكل الاتي :

في لبنان الشمالي ، وفي كسروان ، كان يسكن الموارنة . وكان يقيم بينهم اقليات من الملكيين واليعاقبة ؛ وكان لكل قرية كبيرة رئيس يُدعى المقدَّم. ولكل مقدَّم في قريته حصن او حصون عديدة او على الاقل برج. فكان يرتفع وتتنضد في جبلنا حصون وابراج وتحصينات قوية تقف في وجه الفاتحين عقبة كؤودًا .

ان الأسقف الماروني جبرائيل ابن القلاعي اللحفدي نظم ، في القرن الخامس عشر ، زجلية عامية لتخليد ذكرى المقدمين بقيت زمناً طويلاً مخطوطة تتلاعبت بها ايدي النسّاخ الى ان نشرها بالطبع المؤرخ البحاثة الخوري بولس قرألي ، في مجلته البطريركية في السنة ١٩٣٥ . ولقد جاء بالزجلية المذكورة انه عند اوائل هذا العهد اجتمع الاساقفة الموارنة من الدريب الى بلاد الشوف في جبيل تحت رئاسة البطريرك ، وكان عددهم اربعين اسقفاً ، وانتخبوا سمعان مقدم بكفيا - بسكنتا ملكاً على كسروان المعروفة بالعاصية او الخارجة .

كان الموارنة يملكون في جنوبي كسروان قلعتين شهيرتين : الحاجزية في انطلياس ، والعالية في بجرصاف عند مدخل بكفيا حيث ترتفع الان قبة قبور الامراء بللمع . ولقد اخبرتنا التواريخ والتقاليد عن علاقات ودية كانت بين الامير سمعان هذا والقديس لويس ملك فرنسة .

في الجرد ، اي في جرد كسروان ، والجبال العالية الكائنة شرقي بيروت ، حول جبل صنين وجبل الكنيسة ، كانت تقطن طائفة قوية من الدروز بين اقليات من المتاولة والنصيريين والنصارى ، وكان زعماء هذه الطائفة الدرزية يقيمون في كفرسلوان وحمانا . ونرى ان المؤرخين الموارنة في القرن الرابع عشر يطلقون على زعماء كفرسلوان والجرد لقب المقدمين بللمع.[1] اما المؤرخون الدروز

---

١) الخوري بولس قرألي : حروب المقدمين ؛ المجلة البطريركية سنة ١٩٣٥ ، ص ٨٥ و٨٦

والمسلمون في القرن الرابع عشر والخامس عشر فيسمونهم بامراء الجبال[1]، وكثيراً ما تساءل الكتبة في عصرنا الحاضر، فيما اذا كان البلدميون امراء او مقدمين، فنجيبهم على ذلك انهم كانوا بالوقت نفسه امراء ومقدمين. لان كلمة امير كانت تطلق عندئذ على كل من كان صاحب امر، فكانت لقب اصحاب الوظائف الكبيرة في الجيش او في الادارة. كذلك كلمة مقدم كانت تطلق على كل رئيس في قومه او في وظيفته. فكان يقال امير الجيش، وامير البحر، وامير المركب، وامير المقاطعة، كما كان يقال مقدم الجيش، ومقدم المركب، ومقدم المقاطعة. فاذا كان من فرق بين الكلمتين فهو من جهة المصدر لا من جهة المعنى فيظهر ان مصدر كلمة مقدم هي اللغة الفنيقية لاستعمالها قديماً عند الفنيقيين ومنها كلمة قدموس الشهير، ولشيوعها في لبنان وبلاد العلويين وارثي فنيقية. اما كلمة امير فمصدرها الجزيرة العربية. ان مؤرخي النصارى اللبنانيين اطلقوا على البلدميين لقب مقدمين لأن البلدميين كانوا، في القرن الثالث عشر، مقدمي الجرد والشحار والبقاع. اما المؤرخون العرب من مسلمين ودروز فاطلقوا عليهم لقب امراء الجبال لأنهم كانوا حكام تلك الجبال. واليكم دليلًا على ذلك ما جاء في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى اذ يذكر طوراً كلمة امير وطوراً كلمة مقدم للدلالة على شيء واحد. فيقول: امير الامراء، والمقدم على الامراء، وامير الالف، والمقدم على الالف، واحياناً يذكر الكلمتين معاً مثلا قوله: «وكان معضاد اميراً ومقدماً على الاشراف...» واذا صح ما جاء في تاريخ الاعيان لطنوس الشدياق من ان الامير حيدر الشهابي أمر البلدميين بعد معركة عين داره بان تزوج منهم وزوجهم، فان البلدمين قد زوجوا بالقرن الثالث عشر اعظم امير تنوخي، سعد الدين خضر، ثم صاهر البلدميون في القرن السادس عشر فخر الدين المعني الكبير، وتزوجت بنتا الامير ملحم ممن ابن اخ الامير فخر الدين الكبير من ولدي المقدم علم الدين بلدمع. ولدينا وثائق خطية وكتابات حجرية ترجع الى

---

١) صالح بن يحيى (طبعة ثانية) المطبعة الكاثوليكية، سنة ١٩٢٧، ص ٧٧. والامير حيدر شهاب: كتاب الغرر الحسان: الجزء الاول، مطبعة السلام بمصر سنة ١٩٠٠، ص ٤٨٠

قبل سنة ١٧١١ ، تاريخ موقعة عين داره ، تثبت انه كان يُطلق على آل بللمع لقب امراء. كما كان يُطلق عليهم لقب مقدمين.

اما زعماء حمانا فهم المقدمون آل مزهر. وان هذه العائلة النبيلة حافظت وحدها في لبنان الى الان، منذ القرن الثالث عشر، على منازل جدودها وعلى لقب مقدم الذي يحمله كل فرد من افرادها. وان الكتابة التي وجدت على قبر المقدم صارم الدين مزهر في حمانا تدل على ان هذه العائلة كانت في مقدمة الاسر الجردية في القرن الثالث عشر. ولعلها فرع من اسرة بللمع. وهم ولا شك من سلالة امراء الجبال المشهورين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في جرد كسروان.

ولنعد الى ذكر المناطق اللبنانية :

عين زحلتا كانت ملكاً لطائفة درزية شهيرة تعرف ببني الشويزاني او السوبزاني او السوبجاني[1]، اجداد المشايخ آل عبد الملك في بتاتر.[2]

في بعقلين وبلاد الشوف كان يقطن الدروز ، وعلى رأسهم الامراء المعنيون الذين كان بينهم وبين الامراء الشهابيين، منذ ذلك الحين، علاقات قرابة وصداقة متينة.

امـا مقدم الشوف فكان في ذلك الوقت ، على قول صالح بن يحيى ، معضاد ابن عز الدين معضاد[3].

في حاصبيا ووادي التيم مهد الدروز في لبنان، كان يقطن الامراء الشهابيون.

وفي صور ولبنان الجنوبي كان يسكن المتاولة من بني عاملة.

الغرب ، او السفح الغربي من الجبال الكائنة بين بيروت وصيدا ، كان تحت سيطرة الامراء البحتريين من بني تنوخ المعروفين بامراء الغرب. وان هذه العائلة النبيلة الدرزية كانت في مقدمة العائلات اللبنانية طيلة عهد المماليك. وقد اتخذ هؤلاء الامراء عاصمة لاقطاعهم اولاً عبيه ، ثم بيروت. وكان بين عائلة

١) صالح بن يحيى ، ص ١٠٠ بالحاشية.

٢) لحد خاطر : تاريخ لبنان ، بيروت ، سنة ١٩١٤ ، ص ١٣٠

٣) صالح بن يحيى ، ص ٦٢ و١٧٣

بحتر ، صاحبة الغرب ، وعائلة بللمع زعيمة الجرد ، وصاحبة كفرسلوان ، روابط صداقة وقرابة . فان الامير سعد الدين خضر (١٢٣٩-١٣١٣) كان متزوجاً بابنة من كفرسلوان لم يذكر صالح بن يحيى اسمها ولا اسم عائلتها فدعاهـا بالكفرسلوانية ؛ وذلك تكتماً منه ، لأن عائلة بللمع كانت لم تزل في ذلك الحين من الاسر الجردية التي اشتهرت بعدائها للمماليك والامير سعد الدين خضر هو من اشهر امراء الغرب ، ولقد جاء في تاريخ صالح بن يحيى انه «كان رجلاً جليل القدر زائد الحشمة حسن الشكل غوى الخيول الملاح والصيد واول من لعب بالطيور الجوارح من البيت ، وان صاحب قبرص اهدى اليه طيوراً (وربما كان الذي اهداها له صاحب بيروت ، لأن ذلك اقرب الى العقل) وكان غلمانه من عبيد حبوش مشترى ماله يرسل معهم خيله يربعهم في المتن وكفرسلوان وتلك بها مروج لمراعي خيله»[1] .

وكان يقطن في الغرب قبائل اخرى : آل تلحوق في راس بيروت ، وبنو ابي الجيش في عرامون .

وبنو تغلب كانوا مقيمين في مشغره ، اما نفوذهم فكان يمتد على قسم كبير من البقاع .

واما سهل البقاع فكان مشاعاً تتقاسمه بيوتات جبل لبنان الشهيرة .

وخلال الجزء الثاني من القرن الثالث عشر كان لم يزل الساحل وجميع المدن الساحلية في لبنان في قبضة الصليبيين . واسياد تلك المدن كانوا : في صور : جان دي منفورت . في بيروت : عائلة ابلين . في جبيل : غي الثاني . في طرابلس : الامير بوهيموند السادس والامير بوهيمند السابع . وبين العائلات المعروفة في ذلك العهد اشتهرت عائلة فونتنال وبوي لوران ولارمينا[2] .

ان علاقات الاسياد الصليبيين اللبنانيين مع امراء الدروز والمسلمين والمقدمين الموارنة كانت ودية . فكان يتلقى امراء الغرب من اسياد بيروت الصليبيين

١) صالح بن يحيى ، ص ٦٠

٢) E. Rey, *Les Colonies Franques de Syrie aux XII^e et XIII^e siècle.* Paris, 1883, p. 32.

هدايا كالطيور الجوارح وبزاة الصيد ، وكان امراء الغرب يهدون السيدات الافرنجيات حرائر ثمينة واشالاً من الخشب، وخواتم منقوشة ، ورسومات متقنة . وكانت في اغلب الاحيان من صنع الامراء انفسهم .

ومن الادلة على تلك العلاقات الحسنة ما ذكره صالح بن يحيى ، حفيد امراء الغرب وكاتب تاريخهم ، الذي عاش في القرن الخامس عشر ان رنو دي ساجت (صيدا) وهمفري دي منفورت البيروتي قد وهبا جدوده حق استغلال عدة من المزارع الساحلية . وقد اخبرنا صالح انه ، في سنة ١٢٦٧ ، وهب همفري دي منفورت الفرنجي ، صاحب بيروت ، الامير زين الدين علي ، بموجب كتاب منه ، شكارة العمروسية « بشرط ان لا يبيعها ولا يهبها ومتى فعل ذلك رجع في هبته ومن شروطه مساعدته لصحوبيته وان لا يخلي في بلاده هارباً من بلد بيروت الّا ويردّه صلحاً او بغيره وان لا يمكنه من الاقامة ازيد من ثمانية ايام ولا يمكن احداً من بلاده يفسد في بلد بيروت اعني الساحل لان بلد بيروت كان في تلك الوقت حياله للمسلمين والساحل للفرنج . »[1]

وفي فصلي الربيع والصيف، كانت ترسل الخيول الى خارج المدن والى الجرود لاجل المرعى . وكان يجتمع امراء لبنان ومقدموه من كل الطوائف مع المشايخ والصليبيين للمباراة في ركوب الخيل ، ولعب الجريد ، والمبارزة في حماسة فائقة . ولقد اخبرنا صالح عن الامير سعد الدين خضر انه كان يرسل خيله يربعها في المتن وكفرسلوان وكان يملك قرية مروج لمراعي خيله « وانه قد غوى الخيل الملاح » . فكان يجري في باحات المروج قبل نزول الخيل الى الساحل العاب في الجريد ومباراة بين خيالة الجرد وكسروان والبقاع والسواحل اللبنانية . ومما يجدر ذكره ان هذه العادات لم تزل متبعة الى اليوم ، فكل سنة في نهار عيد مار تقلا الواقع في ٢ ايلول، يجتمع في المروج قرب ضهور الشوير الخيالة من دروز ونصارى ومتاولة من جميع الانحاء المجاورة للاشتراك في العاب الجريد والمبارزات الرياضية .

---

١) صالح بن يحيى ، ص ٥٢ و٥٧ و٨٠

كانت حياة اللبنانيين في ذلك العهد ملأى بالحروب والقتال المتواصل ، لذلك كانوا يتمرنون جدياً على الرمي بالنشاب وعلى الالعاب الحربية .

فكان يحمل الامراء والمقدمون اللبنانيون السيف ذا النصل المستقيم ، والرمح ، والخنجر ، والقوس . ويحاربون على ظهور جيادهم . اما الفلاحون فكان سلاحهم القوس ، والدبوس ، والطبر التي اخذوها عن الصليبيين . وكانت الرجال في الغالب مدرعة .

ولقد صرّح المؤرخ الافرنسي راي ان اللبنانيين هم اشهر الرماة في ذلك العصر[1] . واعطانا صالح بن يحيى في تاريخه ادلة عديدة على براعة اللبنانيين في الرمي بالنشاب ، وعلى اعجاب المصريين والتتار بمهارتهم . فاللبنانيون كانوا يتباهون بجمال قسيّهم وقوتها فكانت تزين جدران منازلهم ويتوارثونها ويتهادونها ويصطادون بها الطيور والحيوانات البرية ويحاربون بها دون سواها اغلب الاوقات . والبارع بالرمي كان محترماً ، مكرماً . وكانت صناعة القسي الممتازة محتكرة في لبنان فكان المصريون والسوريون يشترون القسي القوية الجيدة من بلادنا . ففي موقعة عين الجالوت ، الواقعة بين بيسان ونابلس من اعمال فلسطين ، التي انتصرت بها جيوش المماليك على التتار ، كان الامير زين الدين صالح التنوخي يحارب مع المماليك ، فتحصن شرذمة من التتار في ذروة الجبل ، فاخذ يرميهم زين الدين عن قوس قوية . فاعجب مماليك السلطان رميهُ وصاروا يقدمون له النشاب من تراكيشهم (جعبهم) . ولقد اخبرنا ايضاً صالح بن يحيى ان احدهم اخبر زين الدين علي انه رأى دباً ، فتوجه زين الدين ليلاً الى المكان ولم يصحب احداً ومعه قوسه فأكمن في المكان الذي قيل له عنه . فلما جاز الاسد عليه علم انه مغرور بالقول الذي قيل له ورمى الاسد بسهم واحد متعمداً على بيت القلب فمات الاسد منه .» اما عز الدين جواد فكان يرمي عن قوس ازيد من قنطار بالدمشقي فلما توفي اخذها ابراهيم بن ناصر الدين الحسين ثم باعها لرجل يسمى النتريس من قرية البرج ثم اخذها تنكز بنا نائب بعلبك الخ . . .[2] وقال

١) E. Rey, p. 33

٢) صالح بن يحيى ، ص : ٦٥ ، ٨٢ ، ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٧٤ و٢٠٥

الدومنيكي برشارد الذي زار الشرق في سنة ١٢٨٣ : « ان الموارنة وحدهم يمكنهم تجنيد اربعين الف مقاتل »[١] وكانوا يلقبون بالرماة او النبالة .

ولقد شهد مؤرخ الصليبيين غليوم الصوري انهم، اي الموارنة، رجال شجعان اشداء في الحرب وقدموا الى رجالنا خدمات جلى في مواقعهم العديدة مع اعدائهم[٢] .

كان لدى اللبنانيين في ارضهم المادتان اللازمتان لصنع الاسلحة في ذلك العصر : الخشب والحديد - على اننا ، من جهة اخرى ، نرى اخصامهم المماليك قد سبقوهم في الصناعات الحربية ، فكان لديهم آلات متقنة كالمنجنيق التي كانت ترمي الحجارة الضخمة لابعد من ثلاثمائة متر . وكان لدى المماليك ايضاً جيوش خاصة لنقب الجدران ، ولنسف الابراج .

ان لبنان كان بحاجة في ذلك العصر لزعيم قوي يجمع ، تحت سلطته ، رؤساء القرى والمقاطعات ، او لملك شرعي يجمع شتاتهم ويوّحد صفوفهم . فالامراء والمقدمون كانوا مستقلين بعضهم عن البعض . وكان يعيش كل منهم في قلعته لا يفكر الّا في الدفاع عن قريته . كذلك كانت المدن الفرنجية منقسمة بعضها على البعض تتنازعها الاحزاب السياسية والمطامع التجارية . فكان على كل امير ، وعلى كل مقدم ، وعلى كل مدينة من مدن الشاطىء ، ان تتلقى وحدها صدمة جيوش المماليك بكاملها ، من دون اي مساعدة من جارتها الاقرب اليها . وعلى العكس من ذلك كان السلاطين المماليك يحكمون بلادهم حكماً دكتاتورياً ، ويقبضون في يد واحدة على اعنة سلطنتهم الممتدة من رمال طرابلس الغرب الى ضفاف الفرات .

لقد حارب لبنان اولًا السلطان بيبرس الدموي الذي توصل للملك باشتراكه بقتل سلطانه المعظم الايوبي ، وبقتله صديقه السلطان المظفر

١) Mgr. Dib, *l'Eglise Maronite*, t. I., p. 186

٢) Mgr. Dib, p. 87.

سيف الدين قطوز . وهذا المملوك الذي تولى السلطنة وحكم مصر وسورية كان جندياً نابغة ، وسياسياً محنكاً ، وادارياً ماهراً . فهو الـذي اوقف القديس لويس في المنصورة بمصر ، وانتصر على هولاكو الشهير في عين الجالوت قرب بيسان في بلاد الجليل ، وطرد المغول من سورية . وهو الذي توصل الى منع اتحاد اللبنانيين ، ومحاربة كل مقاطعة وكل مدينة لوحدها . فتحتم اذاً على اللبنانيين ان يخوضوا غمار حرب لا توازن فيها ضد اشهر السلاطين المماليك ، اي ضد الظاهر بيبرس (١٢٦٠–١٢٧٧) والمنصور قلاوون (١٢٧٩–١٢٩٠) والاشرف خليل (١٢٩٠–١٢٩٣) والناصر ابن قلاوون (١٢٩٩–١٣٠٨).

وقد سعى السلطان بيبرس وتمكن من منع اتحاد الصليبيين بعضهم مع البعض ، او اتحـادهم مع اللبنانيين ، لمقاتلة كل منهم على حدة . فعقد اولاً في سنة ١٢٧٢ مع عكا، اقوى المدن الساحلية الصليبية في ذلك العصر هدنة لعشر سنين وعشرة اشهر . وحتى يحول دون عقد معاهدة دفاعية بين امراء الغرب وامير طرابلس بوهيمند السادس الذي انتزع منه انطاكية ، عمد بيبرس في سنة ١٢٧٦ لسجن امراء الغرب بمصر ، وهم زين الدين ، وجمال الدين ، وسعد الدين بحتر[1] ولقد سعى الامير بدر الدين صديقهم ، ونائب بيبرس ، في الافراج عنهم فاجابه بيبرس « هؤلاء ما افرج عنهم ولا اذيهم حتى افتتح طرابلس وصيدا وبيروت.»[2]

فنُزِعَ عندئذٍ اقطاع كفرعمي من امراء بحتر ، وأُعطي لاجنبي عن البلاد ، قطب الدين السعدي ، فقتله الامير نجم الدين ابن الامير جمال الدين المحبوس في مصر . فاتخذ المماليك هذه الجريمة حجة لدخول بلاد الغرب ونهبها ، فاخذوا الحريم وجُعلنَ جواري ، والاولاد وجُعلوا مماليك ، واخذت خيولهم واغنامهم وابقارهم وقماشهم ولقد قال صالح بن يحيى في ذكره هذه الواقعة : « وهذه الكائنة ما سمعنا انه جرى على الغرب كائنة انحس منها . »[3]

وبعد ان دمّر المماليك الغرب ، قرروا كسر شوكة مقدمي لبنان الشمالي ،

١) صالح بن يحيى ، ص ٧٠
٢) صالح بن يحيى ، ص ٧٠
٣) صالح بن يحيى ، ص ٧٤ في الحاشية و٧٥ و٧٦

اصدقاء الافرنج المخلصين ، الـذين اجبروا المماليك في سنة ١٢٦٤ على رفع الحصار عن طرابلس ، وهزموهم هزيمة شنعا.[1] فبعد انتصار السلطان قلاوون في سنة ١٢٨١ ، في سهول حمص ، على جيوش المغول ، ارسل مماليكه لحصار اهدن في شهر ايار سنة ١٢٨٣ . فحاصروها حصارًا شديدًا . فقاومت بنجاح هجماتهم العنيفة مدة اربعين يومًا ، واخيرًا اضطرت للتسليم . فنهبوها وهدموا القلعة التي في وسطها ، والحصن الذي على رأس الجبل . « ثم انتقلوا الى بقوفا ففتحوها في شهر تموز وقبضوا على اكابرها واحرقوهم في البيوت ودكّوها الى الارض واسرفوا في النهب والسلب » . اما اهالي حصرون وكفرسارون فانهم عندما عجزوا عن المقاومـة ، هرب البعض منهم والبعض الآخر التجأ الى الكنيسة ، فذبحوا فيها.[2]

وفي ٢٢ آب سنة ١٢٨٣ ، هاجموا الحدث فهرب اهلها الى العاصي ، قرب الحدث ، وهي مغارة محصنة فيها صهريج ماء . وحاصروا بها ، وكان يتولى الدفاع عنها البطريرك دانيال الحدشيتي بنفسه . فعجز المماليك عن فتحها . وكان قد قارب الشتاء فعمدوا الى حيلة لالقاء القبض على البطريرك ، وتوصلوا بخيانة ابن الصبحا من كفرصغاب لاستملاك ذلك الحصن العاصي . واليكم ما جاء في تاريخ السلطان قلاوون عن البطريرك : « وتحصن البطرك في الحدث وشمخ بانفه . وما قدر احد على التحيل عليه من بين يديه ولا من خلفه . ولولا خوفه من سطوة مولانا السلطان خرب تلك البلاد وفعل ذلك او كاد . فاتفق ان النواب ترصدوه مرارًا فما وجدوه . فقصده التركمان في مكانه وتحيلوا حتى امسكوه واحضروه اسيرًا حسيرًا وكان من دهاة الكفر وطواغيهم واستراح المسلمون منه وامنوا شره . وكان امساكه فتوحـاً عظيماً اعظم من افتتاح حصن او قلعة وكفى الله مكره. »[3]

١) الدويهي : تاريخ الطائفة المارونية (طبعة رشيد الشرتوني) المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٩٠ ، ص ١١١

٢) الدويهي ، ص ١١٥

٣) مجلة المنارة ، سنة ١٩٣٦ ، ص ٢٠٤

وبعد اخضاع لبنان الشمالي ، حاصر السلطان قلاوون طرابلس ، وانتزعها من الصليبيين سنة ١٢٨٩ . وخلفه السلطان الاشرف خليل ، فافتتح جميع المدن الساحلية وهدم قلاعها في سنة ١٢٩١ .

وما كاد المماليك يطردون الافرنج من الساحل حتى تحولوا بانظارهم الى كسروان ، الجبل الوحيد في لبنان الذي بقي محافظاً لذلك الوقت على استقلاله التام ، وخارجاً عن سلطة المماليك ، ومتمرداً على جيوشهم ونوابهم في بلاد الشام . فقرر قواد الجيوش اخضاعه كغيره من المقاطعات اللبنانية ، وجهزوا عليه حملة قوية في سنة ١٢٩٢ .

وقبل اعطائكم التفاصيل الوافية عن هذه الحملة ونتائجها ، علينا ان نبين اهمية جبل كسروان وبطولة سكانه :

ان حدود كسروان الجنوبية كانت تتصل بنهر بيروت ، وببلاد الشرف . فالمتن بكامله كان جزءاً من كسروان . فهو يسيطر اذاً من جهة على سهل البقاع ، ومن جهة اخرى على البحر ، ولا يصعب على الكسروانيين مدّ يد المساعدة لاعداء المماليك سواء كانوا المغول القادمين بسهول البقاع او الافرنج الراكبين في البحر . اما سكان هذا الجبل فكانوا من جميع الطوائف اللبنانية . كانت الاكثرية الساحقة منهم دروزاً يقيمون في الجرد ، اي في حمانا ، والراس ، وقرنايل ، وترشيش ، وزرعون ، وكفرسلوان ، والمتين ، وزحله ، وبسكنتا ، وما جاور تلك القرى . ويأتي بعدهم الموارنة . ويقيمون في بسكنتا ، وكفرعقاب ، ومزرعة كفردبيان ، وفاريا ، وميروبا ، وحراجل ، وبكفيا ، ومجرصاف ، ومحنس ، وما جاور هذه القرى . وكانت تسكن اقلية شيعية ونصيرية بين الدروز . وكان يسكن في الشوير ، والخنشاره ، وبتغرين ، وما جاورها اقلية من النصارى الملكيين . اما اليعاقبة فكان اكثرهم يقطن في جونيه وضواحيها .

ان جميع هذه الاقليات ، عندما رأت ما حلّ بسائر الانحاء اللبنانية من القتل والنهب والخراب ، اتحدت يداً واحدة ، وسلموا قيادتهم لاسرة لبنانية كريمة عريقة في البلاد اشتهرت بالبطولة والوطنية والنزاهة ، الا وهي اسرة بيت

بللمع الشهيرة: فلقد جاء بتاريخ المطران تادوروس ان النصارى من جميع الطوائف فوضوا امرهم عندئذ الى هذه الاسرة الشريفة «واظهروا لها سرهم» ويقول المطران تادوروس ايضاً: «ان بيت بللمع الدرزي كانوا مقدمين في ذلك الوقت على الشحار والجرد والبقاع. فحلفوا لهم (اي للنصارى) انهم سعدتهم ولم خانوهم من حين اتفاقهم.»[1] وبالواقع سنرى ان الامراء البللمعيين او امراء الجبال، كما يسميهم الدروز والمسلمون، او المقدمين البللمعيين كما يسميهم النصارى، كانوا عند ثقة مواطنيهم بهم، واظهروا من البطولة في القتال ما تعجز عنه الجبابرة.

واليكم تفاصيل هذه الحملة كما ذكرها صالح بن يحيى:

«في شهر شعبان سنة احدى وتسعين وستماية (١٢٩٢ م) توجه الامير بيدرا بمعظم العساكر المصرية وصحبته من الامراء الاكابر شمس الدين سنقر الاشقر والامير قرا سنقر المنصوري والامير بدر الدين بكتوت الاتابكي والامير بدر الدين بكتوت القلاعي وغيرهم. وقصدوا جبال كسروان واتاهم من جهات الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا والامير عز الدين ايبك الحموي وغيرهما والتقوا بالجبل وحضر الى الامير بيدرا من ثنى عزمه وكسر حدته فحصل الفتور في امرهم حتى تمكنوا من بعض العساكر في تلك الاوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع اهل تلك الجبال فاضطر الامير بيدرا الى اطابة قلوبهم والاحسان اليهم وخلع على جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا بدمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم وحصل للكسروانيين من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسابهم وحصل للامراء والعسكر من الألم ما اوجب تصريح بعضهم بسوء تدبير الامير بيدرا ونسبوه الى انه انما اهمل امرهم وفتر عن تتالهم حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه فانه تبرطل منهم واخذ منهم جملة كبيرة واحتج الناس بذلك.»[2]

---

١) حروب المقدمين، ص ٨٧.

٢) صالح بن يحيى، ص ٢٩ و ٣٠

اما المؤرخ المقريزي فقد روى هذه الحادثة على الشكل الآتي :

« وفيه خرج الامير بدرالدين بيدرا نائب السلطنة بديار مصر ومعه معظم العسكر الى جبال كسروان من جهة الساحل فلقيهم اهل الجبال وعاد بيدرا شبه المهزوم واضطرب العسكر اضطراباً عظيماً فطمع اهل الجبال فيهم وتشوش الامراء من ذلك وحقدوا على بيدرا ونسبوه انه اخذ منهم رشوة.»[1]

على ان صالح لم يذكر شيئاً عن الكسروانيين . فاليكم ما قاله المطران تادوروس بالحرف الواحد : « واجتمعوا الكساروه وبيت بللمع في بسكنتا وانتظروا عسكر الشام حتى وصل الى عين صنين وتصافقوا الفريقين . وانهزم عسكر الشام من قدامهم واخذوا يقتلوا فيهم حتى ما سلم الا خمس رجال وصلوا الى الشام واخبروا بما صار فيهم . »[2]

ولم يذكر المؤرخون عدد جيوش المماليك في هذه الحملة ، ولا عدد العصاة اللبنانيين . ولكن يمكنا ان نقول مع الأب لامنس ان عدد الجيوش المصرية كان عظيماً بالنسبة لعدد الامراء الذين اشتركوا بهذه الحملة وبالنسبة لشخصياتهم الكبيرة[3] ولا يمكن تقديره بأقل من ثلاثين الف مقاتل . اما عدد الكسروانيين فلم يتجاوز العشرة آلاف مقاتل ، كما يستدل من اقوال المقريزي وابن سباط الدرزي .

٥

على ان هذا الانتصار الباهر الذي احرزه الكسروانيون والبللمعيون كان سبباً مباشراً لهلاكهم ودمار بلادهم . ذلك ان المماليك قد وطدوا العزم في هذه المرة على ابادتهم بكاملهم ، وعلى خراب بلادهم نهائياً ، فأخذوا بالاستعداد مدة سبع سنوات . فجمعوا الجيوش من سورية ومصر في صفد ، ودمشق ، وطرابلس . وبعد ان تم تجهيز الجيوش بكاملها اظهر المماليك للثوار انهم يريدون السلم ولا يطلبون منهم الا نزع سلاحهم والخضوع للسلطان . فوجه نائب الشام

---

١) المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة سنة ١٩٣٩ ، ص ٧٧٦

٢) الخوري بولس قرألي : حروب المقدمين ، ص ٨٨

٣) Lammens, dans *Revue de l'Orient Chrétien*, VII, 1902, p. 458

الافرم زين الدين عدنان ، وقراقوس ، وتقي الدين ابن تيمية[١]، الذي كان يتمتع عندئذ بسلطة دينية وادبية واسعة في مصر وسورية ؛ فبعد ان عجز ابن تيمية عن اقناعهم ، راح يبشر بالجهاد ضدهم لابادتهم ، وكان تأثيره على مواطنيه عظيماً. فكتب الى جميع انحاء سورية حاثاً الرجال على القتال مبيناً اهمية تنظيم حملة ثانية ضدهم ، والاسباب الشرعية الدينية التي تبرر الحكم الذي تقرر تنفيذه في كسروان والكسروانيين ، وألّف في سبيل ذلك مؤلّفين ذكرهما ابن شاكر الكتبي وهما : « الردّ على اهل كسروان الرافضة » و« الجواب الصحيح على النصارى.» ردّاً على الرافضين وعلى المسيحيين.[٢]

واليكم التهم التي وجهها تقي الدين ابن تيمية والماليك الى الكسروانيين والجرديين: اتهموا بانهم اقاموا سوقاً علنية مدة عشرين يوماً على الشاطئ ، وباعوا من القبارسة الاسلحة والخيول التي غنموها من المسلمين . واتهموا انهم فرحوا بمجيء التتر مع الافرنج ، وبانهم باعوا من الافرنج جنوداً اسروها من جيوش المماليك ، وانهم تصدوا للعساكر المصرية المنهزمة من وجه المغول ، ونهبوها ، وفتكوا بالبعض منها ، وباعوهم اسرى للافرنج، وبأنهم مدوا بالذخيرة الصليبيين المحاصَرين في طرابلس . وبأنهم يستقبلون الافرنج من جزيرة قبرس ويضيفونهم في بيوتهم .

وهاكم ما حفظه لنا صالح بن يحيى بالحرف الواحد عن اسباب هذه الحملة: « ومما نقلناه عن النويري والصلاح الكتبي في فتوح كسروان في حوادث سنة خمس وسبعماية (١٣٠٥ م) قالا في ذكر توجه العساكر الشامية الى جبال كسروان وابادة اهلها وتمهيدها وهي النوبة الثانية في ايام السلطان الملك الناصر محمد بن المنصور. قالا : كان اهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وامتدوا الى اذى العسكر عند انهزامه من التتر سنة تسع وتسعين وستماية (١٣٠٠ م) وتراخى الامر عنهم وتمادى وحصل اغفال امرهم فزاد طغيانهم

---

١) صالح بن يحيى ، ص ٢٢

٢) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ؛ طبعة بولاق ، ص ٣٥

واظهروا الخروج عن الطاعة واعتزلوا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة وانه لا يمكن الوصول اليهم »[١]

ان اقرب الناس لهذه الحوادث هما الاسقف تادوروس وصالح بن يحيى. وعلى الرغم من الاخطاء العديدة في مخطوطة المطران تادوروس ، فان فيها تعليقات ثمينة لا تناقض بتاتاً ما ذكره صالح . ان هـذا الاسقف كان معاصراً لهذه الحوادث، وهو يذكر ان استعدادات المماليك لهذه الحملة دامت سبع سنين، وان عدد العساكر التي اجتمعت في بلاد الشام بلغ المائة والخمسين الف مقاتل ، وان الأوامر قد اصدرت للعساكر لتركب على جبل كسروان وتطوقه من الشرق والقبلة والشمال ثم تدخل البلاد وتهدم « القلاع والابرجة والكنائس والاديرة والضياع والعالي تجعلوه واطي والخشن سهل وتقتلوا الرجال والصبيان والنساء والرضع بالسريع. فلما وصل الامر ركبوا وحاطوا البلاد خمسين الف من قب الياس الى انطلياس وخمسين الف من قب الياس الى نبع الخارجة وخمسين الف من الخارجة الى نهر ابراهيم للبحر ومقدم للعسكر نزل في مدينة قبعل وحطوهم تحت الحصار وظلوا اربعة اشهر حتى ملكوا البلاد . ولما ملكوا البلاد جعلوها عبرة للجيران ولم خلص منهم ذو حي الا مدينة جونيه راحوا في المراكب. »[٢]

اما صالح فقد ذكر هذه الحوادث على الوجه الآتي : « فعند ذلك رُسِمَ بتجريد العساكر اليهم من كل جهة وكل مملكة من الممالك الشامية . وتوجه اقش الافرم من دمشق بسائر الجيوش في يوم الاثنين ثاني المحرم سنة خمس وسبعماية (١٣٠٥ م.) وجمع جمعاً كثيراً من الرجالة نحو خمسين الفاً وتوجهوا الى جبال الكسروانيين والجرديين . وتوجه سيف الدين اسندمر نائب طرابلس وشمس الدين سنقرجاه المنصوري نائب صفد وطلع اسندمر المذكور من جهة طرابلس وكان قد نسب الى مباطنتهم فجرّد العزم واراد ان ينفي في هذا الامر ما ينفي عنه هذه الشناعة التي وقعت به . فطلع الى جبل كسروان من اصعب

١) صالح بن يحيى ، ص ٢١ و٢٢

٢) الخوري بولس قرألي : حروب المقدمين ص ٨٦ و٨٧

مسالكه واجتمعت عليهم العساكر واحتوت على جبالهم ووطئت ارضًا لم يكن اهلها يظنون ان احدًا يطأها وقطعت كرومهم واخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتفرقوا في البلاد . واستخدم اسندمر جماعة منهم في طرابلس بجامكيته وجرائه من الاموال الديوانية فاقاموا على ذلك سنين واقطع بعضهم اخبار من حلقة طرابلس واختفى بعضهم في البلاد واضمحل امرهم وخمل ذكرهم.»[١]

واما المقريزي فقد ذكر هذه الحوادث الشهيرة بالحرف التالي : «وفي عشرى شوال توجه الامير آقش الأفرم من دمشق لغزو الدرزية اهل جبال كسروان فان ضررهم اشتهر وامتنعوا في جبلهم وهو صعب المرتقى وصاروا في اثني عشر الف رام. فزحفت العساكر السلطانية عليهم فلم تطقهم وجُرح كثيرٌ منهم فاضطر عندئذ قواد الجيوش للمناداة بالعساكر بجنق كل جندي وكل راجل لا يتقدم للمحاربة او ينهزم من المعركة . فافترقت العساكر عليهم من عدة جهات وقاتلوهم ستة ايام قتالًا شديدًا الى الغاية فلم يثبت اهل الجبال وانهزموا . وصعد العسكر الجبل بعد ان قتل منهم واسر خلقًا كثيرًا ووضع السيف فيهم.»[٢]

هذا وقد سمي شمالي كسروان الى الآن فتوحًا اشارة لدخول نائب طرابلس هذا مع جيوشه اليه لاول مرة. وذكر ابو الفداء هذه الواقعة بتاريخ سنة ٧٠٥ هجرية. وكذلك ابن الوردي ذكرها في تاريخه وزاد قائلًا : «وكان الذي افتى بذلك ابن تيمية وتوجه مع العسكر.» اما ابن سباط المؤرخ الدرزي، الذي عرف في شبابه صالح بن يحيى ، فقد ترك لنا تعليمات ثمينة ، وهي ان رجال الدروز الجرديين « كانوا عشرة امراء بعشرة آلاف مقاتل » هؤلاء الامراء ، ولا شك ، هم الامراء البلمعيون ، لأنهم هم وحدهم زعماء الجرد وكسروان في ذلك الوقت ، وقد سماهم صراحةً المطران تدوروس ولكنه دعاهم بالمقدمين البلمعيين لا بالامراء ، كما سمى نائب الشام الافرم مقدم العسكر ، لا الامير ، كما يسميه مؤرخو الاسلام .

١) صالح بن يحيى ، ص ٢٢ و٢٣ ; Quatremère, t. II, Paris, année 705, p. 253
٢) المقريزي ، ص ٢٠٢ و٢٠٣

ويقول ابن سباط المذكور ان الجيشين التقيا عند عين صوفر ، وجرى بينهما قتال عظيم لا توازن فيه بالعدد فكانت الهزيمة على الامراء : « فهربوا بحريمهم وارزاقهم ونحو ثلاثمائة رجل من اتباعهم واجتمعوا في المغار غربي كسروان المعروف بمغارة نبيه وهي فوق انطلياس بالقرب من مغارة البلانه»[١]. ويقول صالح ابن يحيى: « ان موقعة نبيه المذكورة كانت وقعة رديئة لأن اهل كسروان تجمعوا وقاتلوا بها وكان فيها مغارة اجتمعوا بها بعد القتال وذكر ان عدد اهل كسروان هناك كان اربعة آلاف رجل فراح تحت السيف منهم خلق كثير والسالم منهم تفرقوا في جزين وبلادها وفي البقاع وبلاد بعلبك.»[٢] وقتل من امراء الغرب في هذه الموقعة الامير نجم الدين محمود واخوه شهاب الدين ، وولدا الامير جمال الدين ، وثلاثة وعشرون نفرًا .

وجاء في ابن سباط المذكور انه بعد انكسار الكسروانيين والجرديين اجتمعت بقية منهم في مغارة نبيه المذكورة ، فامر نائب دمشق ان يبنوا على باب المغارة سدًا من الحجارة ، ثم هالوا على بابه التراب والاحجار ، وجعلوا حارسًا عليهم فهلكوا داخل الردم[٣] ويقول ايضًا ابن سباط: « ان جيوش المماليك احاطت بتلك الجبال من كل الجهات ووطئت ارضًا لم يكن احد صعد اليها واخربوا القرى وقطعوا الكروم ونهبوا وقتلوا كل من وجدوه فخربت تلك الجبال المنيعة. »[٤]

ويذكر جميع المؤرخين من نصارى ومسلمين ودروز ، بنوع خاص ، ان الجيوش المهاجمة قطعت كروم الكسروانيين . فاين كانت تلك الكروم وما هي قيمتها في ذلك الوقت ؟ ان تلك الكروم كانت واسعة ، وعنبها وخمرها لذيذًا جدًا . وهي كانت تكسو الجبال الممتدة من ضهور بعيدات وبجنس الى ضهور الشوير . فمكان غابات الصنوبر الكائنة هناك الآن كانت تمتد كروم

١) الامير حيدر شهاب : كتاب الغرر الحسان ، ص ٤٨٠
٢) صالح بن يحيى ، ص ١٠٠
٣) الامير حيدر ، ص ٤٨٠
٤) الامير حيدر ، ص ٤٨٠

العنب ، وهذا تحققناه بنفسنا ، وشاهدنا عددًا كثيرًا من معاصر العنب الكائنة على تلك الجبال بين غابات الصنوبر القائمة الان . ولم تزل بقية من تلك الكروم القديمة الى اليوم . وقد اطلعنا على صكوك قديمة يرجع تاريخها الى ابعد من اربعمائة سنة تسمي غابات الصنوبر الحالية « بكرم العنب » و« كرم التين » .
وكانت كروم العنب منتشرةً ايضاً حوالى صنين من جميع جهاته ، فكروم زحله ترجع الى ذلك العهد ، وكانت اوسع مما هي عليه الان بكثير وتمتد الى نواحي عينطوره والمتين .

وبعد ان تم خراب كسروان والجرد زاد صالح قائلًا : « وعاد نائب الشام الى دمشق في رابع شهر صفر من السنة المذكورة وجعل الناظر في بعلبك والجبال الكسروانية بهاء الدين قراقوش فاخلا ما كان تأخر بجبال كسروان وقتل من اعيانهم جماعة ثم اعطوا اماناً لمن استقر في غير كسروان . »[1]

قد اجمع المؤرخون على اختلاف مذاهبهم ان المماليك لم يتركوا في كسروان كسروانياً واحدًا الَّا قتلوه ، ولم يعطوا الامان الا لمن كان قد تمكن من الهرب واقام خارجاً عن كسروان . ومن نجا من الكسروانيين التجأ اذًا إما الى البقاع حيث كان لهم قرى ومزارع ، واما الى بلاد جزين حيث كان للدروز اصحاب وأقارب ، وإما الى بلاد بعلبك ، الى العاقوره وما يليها حيث كان للموارنة قرى واديرة وكنائس ، واخيرًا من تمكن من سكان السواحل كأهل جونيه قد التجأوا في المراكب الى جزيرة قبرس . فغدت جبال كسروان في ذلك العهد خالية من السكان ، واضحت مقبرة واسعة لاهاليها . ولقد ختم المطران تادوروس كلامه عن هذه الحوادث المفجعة بهذه الكلمات : « وتأسفت الجيران على دمار كسروان وجيرة ناسه . »[2]

وهكذا قضي على ابطال الملحمة الصليبية الاخرين الواحد تلو الاخر ، بعد ان ارغموا المماليك على حشد جيوشهم ، وكل ما لديهم من قوى ، والقتال قتالًا

١) صالح بن يحيى ، ص ٣٢
٢) حروب المقدمين ، ص ٨٨

عنيفاً لاستملاك كل مضيق من مضايق اوديتنا وكل اكمة من اكمات جبالنا ، وبعد اجبارهم على دفع ثمن كل بقعة من ارضنا ثمناً باهظاً . فقاوم اسلافنا مدة اربعة اشهر مدافعين عن ترابهم شبراً شبراً ، مضحين ، في سبيل حريتهم واستقلالهم في بلادهم ، بقراهم واملاكهم وبيوتهم واموالهم وحريمهم واولادهم وحياتهم . وعلى الرغم من كثرة الجيوش المعادية لهم، فان خوف المماليك من النبالة اللبنانيين كان يرعبهم ويُرعد فرائصهم، حتى اضطر نائب دمشق في اليوم الاول والثاني من معركة كسروان الهائلة ان يأمر قواده بالمناداة بالعساكر ان كل جندي يرتدّ الى الوراء او ينهزم يُخنق ويقتل حالاً في مكانه . واستشهاد اولئك الابطال قد القى الستار على عصر من اروع العصور التي مرت على لبنان. فلقد كانت وطأة هذا الانكسار شديدة على لبنان وشاملة جميع ابنائه ، حتى انه منذ ذاك التاريخ خسر اللبنانيون لقب العصاة او الجبابرة الذي طالما لقبوا به . وابتداء من سنة ١٣٠٥ فقد الموارنة ، ولزمن طويل لقب « مردة » ، وضيع الدروز ايضاً شخصيتهم الحربية الشهيرة . وكان الاسى ضارباً اطنابه على جبالنا في بدء القرن الرابع عشر، فاضحى لبنان في هذا القرن رازحاً تحت عبء خراب دوره وقلاعه ومخضباً بدماء ابنائه . وبالواقع انه لم يمرّ على بلادنا عصر اسوأ من هذا العصر .

ولما كانت السيطرة على البحر في يد الافرنج ، وظلت هكذا الى زمن متأخر ، التجأ كثير من اللبنانيين ، وخصوصاً الموارنة ، الى قبرس حيث كان لهم هناك اسقف مقيم في الجزيرة نفسها وطائفة يزيد عددها على الثلاثين الفاً ، وتملك اكثر من اثنين وسبعين قرية.[1]

اما العصر الثاني من عهد المماليك فكان عصر تعمير، واتحاد، وامل وطيد.
وها نحن نلقي نظرة سريعة على حالة اهم المقاطعات اللبنانية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، اي على كسروان ، والغرب ، ولبنان الشمالي :

(1 Mgr. Dib, l'Eglise Maronite. Paris 1930, t. I., p. 359

ان كسروان يهمنا ، قبل كل شيء ، للبطولة الفائقة التي اظهرها في حروبه مع المماليك . وللويلات الهائلة التي نزلت به .

في سبيل منع الافرنج واللبنانيين من الرجوع الى كسروان ، ادخل المماليك الى ذاك البلد التركمان والاكراد ، واناطوا بهم مراقبة كسروان ، والمحافظة على الشاطئ من بيروت الى طرابلس . فلم يسمح لاحد المرور في دربند نهر الكلب ، او التجول في كسروان ، من دون رخصة من امراء الغرب او من امراء التركمان . وقد نزل التركمان في الزوق ، وعين طورا ، وعين شقيق ، وجونيه ، وانطلياس[1] واسكنوا في اعالي جبال كسروان عائلات من المسلمين السنيين . ولكنهم لم يلبثوا ان تركوا قراهم ، او باعوا اراضيهم الى المتاولة الذين باعوها بدورهم الى الموارنة او الدروز . وقد ترك لنا خادم رعية حراجل ، في جرود كسروان ، في اول القرن الثامن عشر ، مخطوطة يقول فيها حرفياً : « من بعد الفحص والسؤال من النصارى والمتاولي وجدت مع المتاولي تواريخ توضح قديمة الكنيسة التي على اسم السيدة عليها اشرف السلام . ووجود المتاولي في هذه القرية وقبلهم الاسلام وقبل الاسلام النصارى ووجود النصارى بعد المتاولي . . .

« ان الكنيسة على اسم السيدي مريم في حراجل قديمة ومبنية من زمان النصارى الذين كانوا قاعدين في هذه الضيعة وجتهن الاسلام وكحتهم وفلوا من الضيعة الى صوب بلاد العاقوره ورايح . وقعدوا الاسلام مطرح النصارى . ويوقته هدوا الكنيسي وما خلولا رسم من العمارة وما بقي فيها الا الداره ويقولولا دارة السيدة مريم بس . الاسلام قعدوا وباعوا رزقهم للمشايخ بيت حمادى . بعتو مشايخ بيت حمادى للمتاولي في بلاد بعلبك وجابوهن وقعدوا في حراجل . ووقت الى جو سنة ١٥٠٥ . اني شفت تاريخهم مكتوب محدى احسبته طلع هيك وقت ما جوا »[2] .

ومما يلفت النظر انه لم تتمكن خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ،

---

١) الامير حيدر ، ص ٤٨٠

٢) تاريخ عَود النصارى الى جرد كسروان ، بقلم الخوري جرجي زغيب خادم حراجل . نشره الخوري بولس قرألي ، في المجلة السورية ، ص ١٤

ابة عائلة كانت من الدروز او الموارنة من السكن في كسروان. ولكن عندما اخذت دولة المماليك في الانحطاط، عاد الدروز الى الجرد، وفي مقدمتهم امراء الجبال، احفاد اولئك الابطال الاشاوس، المقدمين بللمع، الى كفرسلوان؛ والمقدمون آل مزهر الى حمانا، واخضعوا لسطوتهم سفحي الجرد المتن وكسروان من جهة، وزحله والبقاع من الجهة الاخرى. كذلك الموارنة اسرعوا الى كسروان واخذوا برفع الانقاض عن قراهم، وبنيان الكنائس والقبب الشامخة على انقاض الابراج الواقعة، وبتعمير الاديرة على اسس الحصون المتهدمة. واول من عرفناه من الموارنة الذين رجعوا الى كسروان الشيخ المقدام حبيش بن موسى بن عبدالله ابن مخايل، عميد المشايخ آل حبيش في لبنان. فلقد ترك يانوح وقدم غزير في سنة ١٥١٥، قبيل سقوط سلطنة المماليك تحت ضربات السلطان العثماني سليم الاول الشديدة.

ولا يخفى ان الموارنة والدروز ليسوا بدخلاء على كسروان، فلقد استوطنوه في القرن الثالث عشر والثاني عشر وما قبله والنكبة التي حلت في كسروان في سنة ١٣٠٥ حلت بهم قبل سائر الطوائف. فالشيعة والنصيرية لم تكن دوماً الا اقلية ضئيلة في كسروان. وها ان المؤرخ ابا الفداء († ١٣٣١) يذكره حوادث سنة ٧٠٥ هجرية، يدعو الدروز المقيمين في كسروان بالظنيين والمارقين. وصالح بن يحيى، على الرغم من تكتمه ولباقته، لم يتمكن من ان يخفي علاقات المودة والقرابة التي تربط امراء الغرب بالكفرسلوانيين والجرديين الدروز. اما ابن سباط الدرزي († ١٥٢٠م) فصرح ان رجال الدروز الجرديين المقاتلين في سنة ١٣٠٥ كانوا عشرة امراء بعشرة آلاف مقاتل. كذلك المقريزي صرح ان الافرم توجه «لغزو الدرزية اهل جبال كسروان». وخلافاً لما توهمه المستشرقون، حتى الكبار منهم، من امثال الاب لامنس اليسوعي[1] والسيد لاوست[2] نرى ان

١) H. Lammens, *Les Nosairis dans le Liban.* [*Revue de l'Orient Chrétien,* VII. 1902.]

٢) H. Laoust, *Remarques sur les expéditions du Kasrawan sous les premiers Mamlouks.* [*Bulletin du Musée de Beyrouth*] Paris, 1940

الموارنة لم يستفيدوا بتاتاً من خراب كسروان، ولم يحتلوا اراضي النصيريين ولا الشيعيين فيه في القرن الخامس عشر والسادس عشر،بل عادوا الى قراهم واراضيهم التي اضطروا الى تركها في سنة ١٣٠٥ وها ان الاسقف تادوروس،المعاصر لتلك الحملة، يؤكد اشتراك النصارى مع الدروز في تلك الحملة ووجودهم في غربي كسروان. وابن القلاعي يؤكد ازدهار الاسقفيات المارونية في بجرصاف ، وبجنس ، والراس اي راس المتن ، من جنوبي كسروان قبل القرن الثالث عشر . وعند رجوع الموارنة الى كسروان وجدوا آثار كنائسهم التي خربت في حملة المماليك على كسروان سنة ١٣٠٥ ، فكنيسة مار يوحنا في بجرصاف ، والسيدة في حراجل ، وكثير غيرها من الكنائس والاديرة هي مبنية على انقاض الكنائس التي هدمت اثناء تلك الحملة الفظيعة . فاختلاط الموارنة بالدروز يرجع الى ما قبل القرن السادس عشر، فيرجع بالواقع الى القرن الثاني عشر للمسيح .

اما المنطقة التي مثلت دوراً هاماً في لبنان في عصر المماليك فهي بلاد الغرب . ان الامراء البحتريين المعروفين بامراء الغرب قد توصلوا ، بسياستهم اللينة ، وادارتهم المرنة لحفظ رؤوسهم، وللمحافظة على اقطاعاتهم، وان يضموا اليها مدينة بيروت نفسها ، ويتخذونها عاصمة لبلادهم. فخوفاً من الافرنج المقيمين في قبرس ورودس قد كلف المماليك امراء الغرب المحافظة على السواحل اللبنانية من بيروت الى صيدا . فكان امراء الغرب يتناوبون المحافظة في كلتا المدينتين مع تسعين فارساً قسموهم ثلاثة اقسام جعلوهم ابداً يقيم ثلثون منهم شهراً ثم يعقبهم بدل اخر بالمناوبة ، وكانت مهمتهم الاولى ان ينبهوا دمشق باسرع ما يمكن عما يجري في البحر تجاههم ، واتخذوا لهذه الغاية النار يشعلونها في اماكن معينة حيث كان يرتفع اللهيب في الليل والدخان في النهار « فكانوا يشعلون النار في ظاهر بيروت فتجاوبها نار في راس بيروت المتيقة ومنه الى جبل بوارش ومنه الى جبل بيوس ومنها الى جبل الصالحية ومنه الى قلعة دمشق . النار للحوادث في الليل وحمام البطاقة للحوادث في النهار . والبريد للاخبار »[1].

١) صالح بن يحيى ، ص ٣٩ و ٤٠

وقد شجع الامراء البحتريون في القرن الخامس عشر الزراعة والتجارة ، وفرضوا حمايتهم على كل مركب تجاري يدخل مرفأ بيروت حيث كان لدول اوربة بها قناصل . وكان يزدحم في هذا المرفأ مراكب قبرس والبندقية وجنوى وقطاونه وكل دول اوربة البحرية . قال صالح ما حرفيته : « ثم بعد ذلك صار بعض مراكب الافرنج تتردد اليها بالمتاجرة قليلاً قليلاً وكانت مراكب البنادقة تحضر الى قبرس وكان صاحب قبرس يرسل بضائعهم في شبقين (سفينتين) كانت له الى بيروت نقله من بعد اخرى وكان للقبارسة كنس ببيروت وجماعة تجار ساكنين ولهم خانات وحمامين . ثم بطل ذلك وتكاثر حضور مراكب طوائف الفرنج »[١] وفي ايام امير الغرب صدقة في اواسط القرن الخامس عشر امتد حكم الامراء البحتريين شمالاً الى طرابلس وجنوباً الى صفد[٢] .

٥

امـــا لبنان الشمالي فكان يعيش في القرن الرابع عشر تحت نظام الضغط والارهاق، موجساً ان يحل به ما حل بجاره كسروان . وكان بطريرك الموارنة في ذلك العصر الزعيم المدني والديني الوحيد لشعبه بكامله . لكنه لم يتمكن من السكن في مركز ثابت ، فاقام في القرن الرابع عشر تارة في يانوح ، وحيناً في ميفوق ، وطوراً في كفرحي ، وكثيراً ما كان ينتقل هارباً من قرية الى اخرى ، واحياناً كان يلتجئ الى المناور والكهوف[٣] .

وكان الشعب الماروني يشترك مع الاكليروس بانتخاب البطريرك . وكل شخص كان عليه ان يدفع له العشر . وكان يتحتم على المقدمين الموارنة قبل القيام بوظائفهم ان يحصلوا على درجة شدياق ليحق لهم التقدم على العامة . وان حق الحرم الذي يتمتع به البطريرك كان يقضي على المحروم عندئذ بالنفي وبمصادرة املاكه غير المنقولة .

ومن الحوادث الغريبة هو انه ، في سنة ١٣٨٨ ، وصل الى بشري متنكراً ومتدروشاً سلطان المماليك ، الظاهر برقوق . ونرجح انه اتى ملتجئاً اليها من وجه

١) صالح بن يحيى ، ص ٣٩ و ٤٠ ٢) صالح بن يحيى ، ص ٢٣١

٣) Mgr. Dib, p. 156

الامير منطاش الثائر عليه . فتلقاه زعيم فتى يدعى الشديتي يعقوب ابن ايوب ، وعامله حسبا تقضيه واجبات الضيافة اللبنانية ، وزار معه قاديشا ودير قنوبين .

وبعد ان انتصر نهائياً على السلطان حاجي بن شعبان ، اخر سلاطين المماليك الاتراك المعروفين بالبحريين ، وقبل ان يذهب الى الكرك في شرقي الاردن ، اظهر السلطان الظاهر برقوق ، مؤسس دولة المماليك البرجيين الشراكسة ، نفسه لمضيفه . واقامه مقدماً على الموارنة ، وكتب له بذلك صحيفة من نحاس . واعطى رئيس دير قنوبين خطاً اعفى بموجبه ديره من الاموال الاميرية ، وجعل له التقدم على جميع اديرة لبنان[1] . فصداقة المقدم يعقوب ابن ايوب للسلطان ، واستقلاله عن نواب سورية ، مكّناه من حكم لبنان حكماً مطلقاً مدة اثنتين وستين سنة . ولقد ترك الحكم من بعده لاولاده الذين حافظوا عليه الى بعد سقوط دولة المماليك . فان المقدمين آل ايوب يعرفون ايضاً بمقدمي بشراي وقد حكموا حكماً عادلاً ، وتمتع لبنان الشمالي بايامهم في القرن الخامس عشر ، بسلم ورخاء وراحة حسده عليها جيرانه[2] . فتمكن الموارنة بهذا العصر من تضميد جروحهم ومن تعمير بلادهم والتعويض جزئياً عما لحقهم من الخراب في القرن السابق . وقد اتخذ البطريرك الماروني دير قنوبين مركزاً له في بدء القرن الخامس عشر بالقرب من المقدمين آل ايوب العادلين .

ما هي المميزات الخاصة بالحكم الاقطاعي في لبنان في عهد المماليك ؟

ان لبنان كان يتمتع ، في هذا العهد ، بامتيازات ضمنت له استقلاله الداخلي استقلالاً فعلياً . ان الاقطاع في لبنان يخوّل صاحبه حق الاستغلال والتصرف والملكية ، فكان اقطاعاً بالمعنى الفرنجي الصحيح . فلم يكن هبة من سلاطين المماليك . كان السلطان بمنشوره ، يثبت الامراء والمقدمين اللبنانيين في اقطاعاتهم الموروثة . اما في الممالك السورية والمصرية فلم يكن الاقطاع يخول صاحبه الا حق الاستغلال . وكان يمنح لأجل معين او — وهذا من النوادر — لمدة حياة صاحبه . لكنه لم يكن ينتقل في حال من الاحوال الى ورثته .

١) الدويهي ، ص ١٣٠ ٢) الدويهي ، ص ٤٦

في لبنان الاقطاع او المقاطعة هي ملك لصاحبها تنتقل بعد وفاته لورثته . وهكذا نرى ان امراء الغرب والمعنيين والشهابيين والمقدمين آل ايوب اورثوا مقاطعاتهم ومناطقهم بكاملها لورثتهم .

وعند عدم وجود الورثة الذكور ترث الابنة اقطاع والدها بكامله . ففي هذه الحال ايضاً لا يرجع الاقطاع الى السلطان ومثلاً على ذلك هو انه توفي في سنة ١٣٧٥ مقدم العاقوره غزال القيسي ، ولم يخلف ولداً ذكراً ، فانتقل ارثه واقطاعه لابنته زوجة الشدياق جرجس الملقب بالدحداح ، عميد المشايخ الدحادحة في لبنان.[1] وهذه القاعدة هي مطردة فحُكم لبنان بكامله قد انتقل من المعنيين الى الشهابيين بواسطة ابنة الامير احمد معن والدة الامير حيدر شهاب .

ومن المرجح انه في سورية ومصر كان الفلاحون عبيد اسيادهم .

اما في لبنان فكانوا بالأغلب شركاءهم . فانهم ، وان لم يكن لهم حقوق سياسية ، كانوا يتمتعون بجميع الحقوق المدنية ، ولهم ان يختاروا المقاطعة التي يريدونها ، وان يشاركوا الامير او المقدم الذي يختارونه . وكان الجيش اللبناني في ذلك الحين مؤلفاً من الفلاحين ومن اسيادهم فقط .

في خارج لبنان كان النائب واصحاب الاقطاعات موظفين عند السلاطين المماليك وخاضعين لارادتهم . اما في لبنان فكان اصحاب المقاطعات حلفاءهم مستقلين عنهم في بلادهم ، يحق لهم ان يرفضوا الحرب خارج لبنان اذا دعاهم المماليك اليها ، ففي سنة ١٣٢٢ طلب الملك عماد الدين من الامراء الشهابيين ملاقاته لحصار الكرك . فاعتذر رئيسهم الامير حسين وامتنع عن الذهاب.[2]

في مصر وسورية كان يجبي الخراج والضرائب الموظفون الاداريون ، وينفق على رؤساء الجيوش وعلى العسكر ، وما فضل عنهم يذهب الى بيت المال . اما في لبنان فكان اصحاب المقاطعات غير خاضعين لهذا النظام . فكانوا اما يدفعون مبلغاً سنوياً ، واما يقومون بانفسهم بخدمات معينة لقاء اعفائهم من ذلك كاملاً .

---

١) الشيخ طنوس الشدياق : تاريخ الاعيان ، ص ١٠٩

٢) الشيخ طنوس الشدياق ، ص ٤٨

الغرب الذين تعهدوا بحراسة السواحل لقاء ما لديهم من الاقطاعات .

خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر اشتدّت عرى المودة بين جميع سكان لبنان ، لاسيا بين الدروز والموارنة ، واصبحت منذ سنة ١٣٠٥ علاقات حبية ، وكانت الثقة فيما بينهم متبادلة .

فكان الموارنة والدروز خاضعين لعادات واحدة في المسائل المدنية ، حتى وفي الاحوال الشخصية . الدروز كالموارنة لا يتزوجون الا بامرأة واحدة . وقوانين الوصية والارث كانت واحدة عند الطائفتين . نورد على ذلك مثلًا حرية الوصية وحق الانسان ان يوصي بجزء او بجميع املاكه لاحد ورثته دون الاخرين ، وقانون حرمان البنات من ارث ابائهم مع وجود الاخوة ، وقانون حق البنات بكامل ارث والدهم عند فقدان الورثة الذكور .

كان لهم جميعاً هدف وطني واحد ، يرمون من ورائه الى استقلال لبنان استقلالًا كاملًا ، والى المحافظة على تقاليده محافظة تامة .

ان اللبنانيين في ذلك العصر على الرغم من انكسارهم ومحاصرتهم في جبالهم وعزلهم عن اوربة والافرنج ، قد حفظوا لخلفائهم القدماء ذكرى لم تقوَ على الغائها السنون العديدة فلم يقنطوا قط من مشاهدتهم والاتصال بهم ، وكانوا يترقبون كل الفرص لتجديد معاهداتهم . ولا عجب اذا رأينا النواب الدروز والموارنة يغادرون لبنان معاً الى رومة نفسها في سنة ١٤٤١ ، ويطلبون من البابا ، ممثل اوربة والفرنج جميعاً في ذلك العهد ، ان يجدد مع بلادهم العلاقات الدبلوماسية . وقد اجاب الحبر الاعظم طلبهم ، وانشأ في سنة ١٤٤٤مفوضية رسولية للموارنة والدروز[1] .

وعلينا ان نعترف اخيرًا ان الذي مهّد السبيل لامير لبنان ، فخر الدين المعني الكبير ، ومكنه من تأسيس لبنان الحديث ، وتحقيق برنامجه الوطني بكامله ، هو اتحاد اللبنانيين قاطبة اتحادًا كاملًا ، ولاسيما صداقة الدروز والموارنة صداقة متينة حقيقية وفية لا غشّ فيها على الاطلاق .

1) Mgr. Dib, p. 222

الأدب وتطوّره في جبل عامل*

بقلم الشيخ علي الزين

توطئة

الحق لا يعرف صداقة ولا عداوة . ولذا كان على الباحث النزيه ان يتحلّل ، في ابحاثه واحكامه ، من اثر العواطف على نفسه ، ليخلص من ذلك للحق والجمال الذي ينشده ، ويرضي وجدانه وادبه ، وينصف صديقه وعدوّه ؛ والّا كان مفرضاً في احكامه ، شاكّاً في مثله العليا . وانني بوازع من هذه النية ، وبدافع من هذا الاعتقاد ، اتوّجه للبحث عن تطور الادب العاملي متحمّساً لابداء رأيي في ذلك ، لا اخاف في اطراء ما يستحق الاطراء منه أن أُتهم في انصافي وتجرّدي من عواطف الصداقة والمودة ، ولا اخشى في نقد ما يستحق النقد منه ان يُشكّ في اخلاصي وتزاهتي من شوائب الجهل والضغينة ؛ كما انني لا ادّعي العصمة في احكامي ولا الإحاطة في علمي واختباري .

«على شاطئ هذا الابيض ، وامام مجد التاريخ الماثل في انقاض صيدا وصور القديمتين ، نهضت بقعة صغيرة منفردة من بقاع الشام قد نظمها الله آكاماً متماسكة تتسامى الى العلاء . رويداً رويداً كلما امعنت في الابتعاد عن الشاطئ نحو مطلع الشمس ، تلك هي جبال عاملة التي يعرفها الناس باسم جبل عامل» .

وجبل عامل هذا العربي الصريح في نسبه ، والشيعي القديم في ولائه لاهل بيت الرسول ، لم يكن له فيما مضى وجود سياسي مستقل ، إلا في بعض

* دراسة قُدّمت الى معهد الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف (فرع الادب العربي) .

العهود الاقطاعية ، ليكون له من ذلك تاريخ مستقيم الحدود عالي الدعائم يجوز للمعتز بوجدانه منا ان يعوّل عليه ويطمئن الى فحواه .

وانما كل ما يمكننا ان نفخر به من السياسة في ذلك العهد الاقطاعي المظلم ان ساستنا استطاعوا ، اثناء تلك الفوضى الهدامة والعدوان الغاشم ، ان يدافعوا عن كيانهم في كثير من المواقف السلبية ، بما تهيأ لهم من تيقظ روح النجدة والحمية في امتهم المضطهدة ، وان ينقذوا بلادهم وأعراضهم من خطر النهب والقتل ، وما الى ذلك من انواع العسف والتدمير .

اما ان ساستنا استطاعوا ان يسيطروا على من حولهم من البلاد والمقاطعات المناهضة لهم ، او حاولوا ان يفرضوا ارادتهم على من سواهم من الحكام والجيران ، كما كان يفعل ارباب الحول والطول من السادة والقادة ، فذلك شيء لم يكن له في تاريخهم أثر يذكر او شاهد يؤثر من ايامهم المعدودة ومواقفهم المشهودة ، وإلّا لما كانوا في عنفوان يقظتهم تخلوا عن صيدا — وهي حاضرة بلادهم — للشيخ ظاهر العُمَر ، وهو انما راضٍ جامحها بقوتهم واحتلّ منيعها برجالهم يوم أجلوا عنها الوالي درويش باشا ، وهزموا جند الامير يوسف شهاب .

ولكن التاريخ العاملي المجيد الذي يحقّ لنا ان نفاخر به وان نطاول عواصم البلاد السورية والعربية اجمع في تلك الفترة التي تخلف بها كل علم وادب ، وانضوت كل ثقافة وحضارة في دنيا العرب والاسلام ، هو تاريخهم العلمي والادبي الحافل بروائع الاخيلة والافكار والاساليب البيانية .

مجمل الحالة الادبية قبل الجزار

واذا كان من الصعب على الباحثين اليوم تقويم هذا التاريخ وتوضيح حدوده ومعالمه بغير ان يوزعوا مجراه ويقسموا فصوله الى عهدين : العهد الذي تقدّم حملة احمد باشا الجزار (سنة ١١٩٥هـ=١٧٨١)، والعهد الذي تلاها واستمرّ الى هذه الساعة . فان العهد الذي تقدّم حملة الجزّار لا يمكننا من التوسع في تفصيل ادواره وتحديد شخصياته وطبقاته على ما يجب ، لبعد العهد ، وقلّة المصادر الكافية ، واندثار الكتب العاملية في زعازع تلك الغارة المشؤومة ، إلا ما ندر من الكتب التي سلمت

من النيران ، وتعدت جبـل عامل في عصرها الى غيره من البلدان الشيعية ، كاللمعة ، والمدارك ، والمكاسب ، والمعالم والوسائل ، وأدب المفيد والمستفيد ، وأمل الآمل ، والخلاصة ، والصمدية ، والكشكول ، والمخلاة . وما الى ذلك من نفائس علمية وادبية لا تزال الى يومنا هذا أوثق مصدر واعذب مورد لطلّاب العلم والادب في مدارس الشيعة ، وفي سائر معاهدها العلمية على اختلاف اللغات وتنوّع الامصار والبلدان .

وقـد يكون في هذا النموذج من نسيب الشيخ محمد بن محمود العاملي المتوفى سنة ١٠٩٠ هجرية (١٦٧٩) .

قف بالمنازل ، حيث اوقفك الهوى ، وكلِ البكاء الى الحمام الهيفِ ؛
اني غسلت من الـدموع انامل ، ومسحت من اثر البكاء كفوفي .
وقفت بي الوجناء بين طلولهم ؛ لولا مكان الريب ، طال وقوفي ؛
ارتاد في عرصاتهنّ كأنني طيف المّ بناظرٍ مطروفِ ؛
فصمنَ حتى لا يجبنَ مسائلي ، وعمينَ حتى لا يرينَ عكوفي .

وفي هذا المثل من حنين الشيخ ابرهيم يحيي الى عاملة ، وقد طوح به الخوف من فتك الجزار الى دمشق الشام .

من لي بردّ مواسم اللـذاتِ ، والعيش بين فتى وبين فتاةِ ،
ورجوع ايام مَضينَ بعامل بين الجبال الشمّ والهضباتِ ،
والشمل مجتمع ، واخوان الصفا احنى من الآباء والأماتِ ،
والروض افيح ، والجناب ممنَّع ، والورد صافٍ ، والزمان مُواتي ؛
اذ لا ترى الّا كريمًا كفه ، والوجه عين حَيًا وعين حياةِ ،
تختال في المغنى الرحيب ضيوفه ان الكرام رحيبة الساحاتِ ؛
او عالما حبرًا ، اذا خضخضته حشد المحيط عليك بالغمراتِ ،
واذا اقتبست النور من مشكاته ؛ اهدى اليك البدر في الظلماتِ ؛
او شاعرا ذرب اللسان تخاله قحًا ترعرع في الزمان العاتي ،
يأتي بكل غريبة وحشيّة نشأت مع الآرام في الفلواتِ .
ويصوغ كل بديعة حضريّة مصقولة الجنبات كالمرآةِ .
لهفي على تلك الديار واهلها ، لو كان تنفع غلتي لهفاتي !

. . .

خطب دعاني للخروج من الحمى فخرجت بعد تلوّمٍ وأناةِ ،
وتركته خوفَ الهوان ، وربما تُرك النمير مخافة الهلكاتِ .

قد يكون في شعر هذين الشاعرين ، وفي ديوان عبد المحسن الصوري ، وديوان الشيخ ابرهيم الحاريصي ، وفي الكشكول لبهاء الدين العاملي ، او فيما ورد في كتاب سلافة العصر لابن معصوم من آثار بعض ادبائهم وتراجم بعض علمائهم ، ما يكفي لتمثيل أدبهم وثقافتهم في تلك العصور الخالية .

لذلك نجتزئ عن الشرح والتفصيل باجمال الاشارة الى هذه الآثار القيّمة ، والى ما بقي من اطلال المدارس في ضواحي القرى العاملية ، فهي خير شاهد على ما كان للعامليين من امتياز علمي وادبي ، او على مقدار تفوقهم — مع ضعف حالهم الاقتصادي واضطهادهم السياسي — في ذلك العهد القاتم . ولعل في مطالعة كتاب « امل الآمل في علماء جبل عامل » ، طبع ايران ، وما يعدده هناك من علمائهم ومؤلفاتهم ما قد يزيد القارئ استبصاراً بعظمة جهود العامليين الأول وباتساع ثروتهم الفكرية ، وخصوصاً في العلوم الدينية .

الادوار الثلاثة

هذا واما العهد الذي يلي حملة الجزار فهو العهد الذي يمكنك ، اذا تدرّجت مع تاريخ ادبهم ، وتتبعت مظاهر الحركة الفكرية في هذه الحقبة منه ، ان تقسم حياة الادب فيه الى ثلاثة ادوار . دور الإحياء والبعث ، دور التطوّر والانتقال ، دور التجديد والترف الفني .

دور الاحياء والبعث

عندما استيقظ العامليّون من غشيتهم على اثر تلك الصدمة العنيفة ، ورأوا ما قد اصاب جامعتهم من تشتيت ، وما نزل بساحتهم من بلاء ، وحاق بهم من ضعف وفقر ، وما قد مُنُوا به من فقد علمائهم وادبائهم وقادتهم نفياً وقتلاً وتشريداً ، ومن اندثار مكاتبهم وتلاشي آثارهم حرقاً ونهباً وتداعياً بيد البلى[1] ، راعهم هول الموقف واكظهم بعد الشقة ما بين حاضرهم وماضيهم ،

١) يُروى أن مكتبة آل خاتون في « جُويّا » – وكانت تشتمل على خمسة آلاف مجلد – قد ذهبت كلها طعمةً للنار .

فتوالت لذلك بقايا العواطف المكبوتة جزعاً وخوفاً ، وشظايا القلوب المتقدة غيرة وحمية ، وهبّ الجميع يعملون على توحيد الشمل ، ورأب الصدع ، وترميم ما درس من اطلال ، واحياء ما سلف من عهود علمية وادبية . وكان لهذا الاتجاه صداه فيما بعد ، واثره في تأسيس مدرسة الكوثرية ، ثم مدرسة جباع ، ثم مدرسة حَنَوَيه ، ثم مدرسة بنت جبيل ، ثم مدرسة النبطية ، ثم مدارس انصار ، وشقراء ، وعيثا .

وكان لهذه المدارس ، مع تعاقب الرحلات العلمية الى النجف ، وتأثر المهاجرين منهم بالثقافات النجفية والآداب العراقية ، نتائجها القيّمة في توجيه الافكار نحو الحياة العلمية ، وعملها المؤثر في احياء الروح الادبية ، وتوطيد الأسس لهذه النهضة المباركة ، التي قام بها اولئك اللامعون من ادباء هذا الدور ، وعلماء ذلك الجيل ، كالشيخ علي زيدان ، والشيخ ابراهيم صادق ، والشيخ علي السبيتي ، والشيخ عبدالله نعمة ، والشيخ محمد علي عز الدين ، والشيخ موسى شراره ، والسيد محمد علي ابراهيم ، والسيد حسن يوسف ، والشيخ محمد سليمان ، والشيخ محمد حسين شمس الدين ، والشيخ موسى مغنية ، ممن رفعوا لواء النهضة العلمية والادبية في هذه البلاد ، وأحيوا عهداً زاهراً تغلبوا فيه على مقتضى العوامل الهدامة التي اوشكت ان تجتاح اللغة والعلوم والآداب العربية في مثل بيئتهم وفي مثل طائفتهم . ولو انه تسنّى لهم ما قد تسنى لغيرهم في هذا العصر من الاتصال بمثل معاهد اليسوعيين والاميركان ، واستخدام مطابعهم ومكاتبهم وتنوّع ثقافتهم ، الى كل ما يغذي المطامح العلمية والفنية ، لكان لهم في عالم النهضة الفكرية والادبية اثر غير هذا الأثر وشأن غير هذا الشأن . وبرهاننا على صحة هذا الزعم نبوغ السيدة زينب فواز العاملية ، صاحبة كتاب الدرّ المنثور ورواية حسن العواقب ، عندما ذهبت الى مصر واتصلت بمثل هذه البيئات العلمية ، ثم نبوغ حسن كامل صباح مؤخراً في دنيا العلم والاختراع ، عندما تهيأ له من معاهد اميركة ومختبراتها ما ساعده على تحقيق احلامه واختراعاته .

ما يمتاز به الادب في هذا الدور

اما الشعر في هذا الدور فانه قد أدّى رسالته كاملة ، او كالكاملة ، لا يشوبها غير اختلاف الغرض من الشعر اليوم عن الغرض منه فيما قبل ؛ اذ لم يكن همّ الشاعر وغايته من نظم الشعر الا التقليد والمحاكاة لمن تقدمه من اعلام الشعر في الفكر والخيال والاسلوب ، واذ كان الشاعر اذا اراد ان يمدح او يذم او يتغزل او ان يصوّر افكاره ، ويعبر عن عواطفه على تلونها ، لا بد له من امثلة شعرية يحتذيها ، وصور بارعة يعكسها ويولّد منها ابياته وقصائده ويؤلف انغامه واناشيده . فاذا اراد مثلاً ان يرثي ، نظر أولاً الى من يتأثره من المتقدمين كيف كان يرثي ، وبأي اسلوب ، فاذا رآه يبتدئ بالتفجع والتهويل وتعظيم المصاب ، ثم يتخلص الى مآثر الفقيد ومحلّه من قومه ، ثم إلى التعزية ببقاء آله وذويه ، وبما يتوسمه بهم من برّ ونجابة ، ابتدأ صاحبنا وتخلص وانتهى على هذا النحو . واذا رآه يبتدئ بالحكمة والموعظة ، وينتهي بالترحم والاستغفار للفقيد والاستسقاء لجدثه ، كان ذلك كذلك حذو النعل بالنعل . وهكذا كانوا في أي موضوع ، وفي أية مناسبة ينظمون بها ، لا بد لهم من دليل يرشدهم وقائد يقودهم الى الاسلوب والخيال الذي يختارونه لعرض افكارهم وإظهار مجاملاتهم وعواطفهم . وانما الجواد الجواد منهم من كان يستطيع ان يجري في مصاف قادته وادلائه ، او كان بوسعه ان يسبقهم ، او يستقل عنهم في بيت او ابيات يختلسها من اختلاف المواضيع والظروف وتفاوت الاذواق والافكار .

الادلة على ان الغرض من الشعر هو التقليد

ولست في حاجة الى اقامة الدليل على مثل هذا الزعم . فالادلة كثيرة متنوّعة . ونظرة بسيطة الى الآثار الادبية ، الباقية كدواوين آل يحيى ، وآل فضل الله ، وآل مروّه ، وآل شمس الدين ، ثم نظرة اخرى الى آثار من تقدمهم كأبي تمام ، والبحتري ، والمتنبي ، والرضي ، وشعراء الاغاني ، ومعاهد التنصيص ، والسلافة ، يتضح لك واقع الامر ، ثم ينكشف الغطاء عن تلك الصلة القوية والتشابه القوي بين الاساليب وبين الاخيلة والصور ، وربما كنت

على شيء من الحق اذا قلت بين الكثير من مفردات المعاني والالفاظ حتى في المواضيع الشعرية الجديدة التي لم يطرقها غيرهم من المتقدمين .

النماذج الشعرية

واليك شاهدًا على ما اقول هذه القطعة الشعرية لشاعر كبير من شعرائهم الباقين ، اراد ان يعلن براعته في المواضيع الجديدة ، ويصف القطار ، فاذا به يصف الناقة .

تتجارى والفكر في أمد السير ، فتجتاز غاية الافكار ،
مشقت للحديد خطين ، وانسابت فخاطت صحاصحًا بصحاري ،
ترعتها رماتها أيّ سهم مَرَّ يغلي ، مفوّق الاوتار ،
مارقًا في حشاشة البيد ، تكبو ظُلَّمًا عنه لمحةُ الابصار .
بنت برٍّ لا فارض وعوان ، هي بكر من اعظم الابكار ؛
نشأت ذات صبوة وغرام بمناق الفلا ووصل القفار
واستشاطت تغيّظًا وزفيرًا وسمت بالصدى فضا الاقطار .

فانظر اليها ، على ما بها من براعة السبك ، ومتانة التركيب ، وصفاء الديباجة ، هل ترى ، بعد تجريدها من ذلك العنوان ، او تحريرها من تلك الجملة « مشقت للحديد خطين » ، غير وصف عامّ من اوصاف الناقة ، على ما كان يحفها به المتقدمون من أعراب البادية والضاربين على وتيرتهم من المتأخرين !

ثم انظر الى هذه القطعة الثانية التي اراد بها وصف الباخرة :

كلما زجّها بجذب ودفع مارجٌ في فؤادها من نارِ ،
فتحت للخضمّ عينًا ، ومرّت بين اجفانها خيال ساري .
تمخر اليمّ في جماجم صدرٍ فترى الماء حولها كالسوارِ ،
كلما اثلعت مناخير موجٍ نحرتها بكلكل بتّارِ .
واذا الريح جمّدت وفراتِ الغمر ، هبّت تغلي جمود الغمارِ .
تتخطى مناكب اللجج الشمّ ، على طولها ، بأيدٍ قصارِ ؛
هي ، عجزًا ، قطًا ؛ وعُنقًا ، نعامٌ ؛ وجناحًا ، فيجٌ ، وصوتًا ، قماري ؛
بنت بحر تخلقت من سجاياه بخلقي خلاعة ووقارِ ؛
فهي ارسى ، اذا رسى ، من ثبير ، ليس يدرى جرت ام الماء جاري !
وأوانًا تختال تيهًا ورقصًا ، وفق تصفيق موجه التيارِ ،
فاذا صوّبت تغصّ لتخوم الارض ، او صعّدت تحكُّ الدراري .

افلا ترى ، وانت تقرأ هذه الابيات ، ان هذه المعاني التي حشدها هي بنسبتها للناقة أروع واصدق منها بنسبتها للفُلك ، وخصوصاً اذا جاز لنا ان نبدل هذه الالفاظ التي حوّرت بها معاني الناقة لتكون وصفاً للفلك او جاز لنا ان نضع:

« اروعٌ من حداتها الابرار » مكان « مارجٌ في فؤادها من نار » في البيت الاول .

وان نضع لفظة « السراب » مكان « الخضم » في البيت الثاني .

و« الافق » مكان « اليم » و« الآل » مكان « الماء » في البيت الثالث .

و« الحقف » مكان « الموج » و« يرخدها » مكان « بكلكل » في البيت الرابع .

و« القفر » مكان « الغمر » في البيت الخامس .

و« القنن » مكان « اللجج » في البيت السادس .

و« البر » مكان « البحر » في البيت الثامن .

و« النقع » مكان « الماء » في البيت التاسع .

و« شيحه والغار » مكان « موجه التيار » في البيت العاشر .

ثم ما لفظ « اتلعت » وما كلمة « المناحير » وما كلمة « النحر » وما كلمة « الكلكل » في قوله :

كلما أتلعت مناحير موج ، عرضها بكلكل بتار

وهل هي الا من خصائص الناقة . . . وكذلك « تتخطى بأيدٍ قصار» في قوله:

تتخطى مناكب اللجج الشم ، عن طولها ، بايد قصار

وكذلك الزجّ والجذب والدفع في قوله « كلما زجها بجذب ودفع » .

ثم التيه والرقص والاختيال في قوله « وأواناً تختال تيهاً ورقصاً » .

وعلى هذا النحو يستطيع الباحث المدقق ان يمضي في استعراض هذه القصيدة الرائعة من اولها الى آخرها ، فلا يجد فيها اثراً للحرية والاستقلال ، الا ما شذّ من ابيات قليلة افترضها على الشاعر افتراضاً اختلاف الموضوع وتغاير الظروف ، ولذلك لم يكن فيها كشاعر ملهم متيقظ الفكر ، متوثب الخيال ، وانما كان كمحدث عادي ينقل اليك ما يراه بايسر صوره وابسط مظاهره ، او يحمل عليه

صورًا متكلفة معتسفة لا يستسيغها الذوق الفني ، ولا تقرّها طبيعة الموضوع والحقيقة المرئية في الخيال . ثم بعد هذا كله ، سَلْ نفسك عن السبب الاول والعلة الوحيدة في ذلك ما هي . . . أنقص في فطرة الشاعر ام ضعف في ملكاته الفنية . . . ام قصور في لغته وبيانه . . . ام هو محض التقليد . . . او سل بيئته العامة والخاصة وثقافته العاملية والنجفية وما فطر عليه ابناء ذلك الجيل من تقديس الاجداد والتقيد بامثال قولهم « هل غادر الشعراء من متردم » و« هل ترك الاول للآخر شيئاً » ؛ تجبك هذه كلها مختلفة مؤتلفة بافصح بيان ، واصدق حجة ، انه التقليد والتقليد الطبيعي في هذه الطبقة من شعرائنا .

التخميس والمعارضة والتشطير

ومما يؤكد لنا ذلك الزعم ما كانوا عليه من افتنان بالتخميس ، والتشطير ، والمعارضة ، وما اشبه ذلك من الاساليب التي يدور بها الناظم حول غيره من الشعراء ، ويتأثر خطاه خطوة خطوة . فقد كان الشاعر منهم الى الامس القريب يترقب فرصةً للنظم بظهور قصيدة او بالعثور على ابيات تثير إعجابه او تبعث نقمته ليشطرها او يخمسها او يعارضها ، وما عهدنا بالقصيدة الافريقية :

مهلا ، على رسلك ، حادي الأينق ، ولا تكلّفها بما لم تطق !

او بخالية بطرس كرامه :

امن خدّها الورديّ أفتنك الخالُ ، فسحّ من الاجفان مدمعك الهَالُ !

او بموشحات السيد محمد سعيد حبوبي ، او بقصيدة ابي الحسن التهامي

يا ليل الصبّ متى غده؟ وقيام الساعة موعده !

ببعيد ، وقد تسابق في معارضتها اكثر من شاعر من شعرائنا الكبار كالشيخ ابراهيم صادق ، والشيخ محمد حسين شمس الدين ، والشيخ عبد الحسين صادق ، والسيد عبد الحسين نور الدين .

طرائقهم في الجدل والنقد

وقد يكون اشد تأكيدًا واوضح دلالة على مذاهب الادباء في ذلك العهد طرائقهم في الجدل ، وتمييز صحيح الشعر من فاسده ، تلك الطرائق التي اوشكت

ان تنتهي في قولها الفصل إلى المقارنة بين قديم الشعر وحديثه ، فما كان له مبرر وشبه من القديم اقرّوه وصوّبوه ، وما لم يكن له شيء من هـذه المبرّرات شكّوا في صوابه او لجّ بهم الجمود الى طرحه وانتباذه .

واليك شاهداً على ذلك ، ما يرويه الثقاة من اختلاف العلامتين السيد علي محمود الامين والشيخ عبد الحسين صادق ، في مأتم العلامة السيد محمد نور الدين ، على بيت من الشعر يدعو بـه الشاعر آل الفقيد ان ينكسوا الهام وينفضوا الاكف يأساً من المجد والفخار بعد فقيدهم ، ومن ان الحجة المعتبرة والكلمة المسموعة بين ذلك الحفل المكتظ بالأفاضل من اهل العلم والادب انما كانت للذي استطاع ان يستشهد على جواز ذلك المعنى وصحته من الشعر القديم بمثل قول مهيار راثياً ومعرضاً :

أقريشُ ، لا لفمٍ أراكِ ولا يدٍ ؛ فتواكلي ! غاض الندى ، وخلى الندى !
خولست فالتفتي باوقصَ ، واسألي مَن بزّ طهرك وانظري من ارمدِ ،
وعني الذحول فلستِ رائد حاجة تقضى بمطرور ولا بمهنّدِ ،
خلّاك ذو الحسبين انقاضاً ، متى تجذب على ظهر المذلة تنقدِ .
قمر الدنا ، اضحت سماؤك بعده ارضاً تداس بحائر وبمهتدي ؛
فاذا تشادقت الخُصوم ، فلجلجي ؛ واذا تصادمت الكماة ، فرّدي .

اما الاعتداد بالذوق الفني ، ومراعاة المقام ، وانه مقام تعزية ورفق وتكريم لا يليق به من شاعر حساس ان يتعرض للمعزّى من آل الفقيد بما يضعف رجاءهم ويقلّل من هيبتهم ويجردهم من كل كفاءة ، بدلاً من ان يخلق لهم بخياله جوّاً فسيحاً واسعاً من الاحلام والاماني المنعشة ، ومحلاً سامياً مرموقاً من الثقة بمستقبلهم والاطمئنان الى حزمهم ونشاطهم ، اما ذلك وامثال ذلك فلم يكن له من نفوس الحاضرين اي عناية واي التفات .

ابلغ عوامل التقليد

وربما كان من اقوى البواعث عـلى التزام هذه الخطة التقليدية ان اصحاب الكفاءات والمواهب الفنية منهم لم يتهيأ لهم ان يتخذوا الشعر والادب غايـة لذاتها او ينصرفوا بهما الى المواضيع الفنية البعيدة عن سلطان العرف والتقاليد

الجائزة ، ويتكلوا فيما ينشؤون على افكارهم وعواطفهم ويخلدوا لها في شعرهم وبيانهم . وانما كانوا مضطرين بحكم الظروف السياسية والتقاليد الثقافية الى مراعاة الشائع والمألوف من فكرة وعرف واسلوب ، ثم الى جعل الشعر والأدب وسيلة لتحقيق اغراضهم الاجتماعية وأداة مصطنعة لقضاء حاجاتهم الضرورية او رفع المسؤولية عنهم في الحفلات والمناسبات والمجاملات الوقتية .

الخصائص المذهبية في شعرهم

ثم اذا كان هنالك شيء آخر يميزهم عن غيرهم من ادباء سورية ولبنان في هـذا الدور فهو تأزمهم الى حدّ بعيد بكل ما له صلة وثيقة بتاريخ المذهب الشيعي ، اذ قلّما تجد لهم مجموعة ادبية او ديوان شعر قـد خلا من وحي العواطف الشيعية المحتدمة ، عواطف الحب لآل بيت الرسول ، او عواطف الحزن والرثاء لما ألمّ بهم من حيف وظلم ، او عواطف الحماسة والثورة على مغتصبي حقوقهم ومضطهديهم من الساسة ، مع التعمق في الاستدلال على صواب الخصائص المذهبية وعلى خطأ مفنّديهم . وانه ، وان كان في ذلك شيء من التقليد لشعراء الشيعة الاولين كالكميت ، ودعبل ، وابي تمام ، وابن الرومي ، او الرضيّ ، ومهيار ، او ابي فراس وامثاله ، فليس في الامر من شكّ في انه كان يمثل اصدق عاطفة منهم واقوى عقيدة في نفوسهم . ولعلّ اصحّ نموذج لهذا الادب ديوان الشيخ ابراهيم صادق ، والقصيدة الغديرية للشيخ محمد حسين شمس الدين :

٥

ولكنه على ايّ حال يمكننا ان نقول ان شعراءنا المتقدّمين ، بذلك اللحاظ وبذلك القياس ، قد أدّوا رسالتهم محكمة الاصول متنوعة الفروع ، واخذوا بحظهم الاوفى من احياء الادب العربي القديم والاحتفاظ بمذاهبه واساليبه وجماله البدوي التليد . ولعلّ اصدق نموذج لأدبهم وشعرهم هـذه القطعة من شعر الشيخ محمد حسين شمس الدين .

على الدار من سلمى بذي الأثل ، سلّموا ! وهـل تنطق العجماء او تتكلّم !
قفوا بجانبها قليلاً ، لعلّني أداوي الحشا من زفرة تتضرّم .

دعوني اجيل الطرف في عرصاتها قذيًا ، وفي آبائها اتوسّم ؛
اناشدها عنهم ، متى عنك قوّضوا ! وفي أيّ وادٍ بعدك اليوم خيّموا ؟
وشُعثٌ على الاكوار ، خمصٌ من الطوى ، سروا يخبطون السير ، والليل مبهمُ ،
خِفافٌ على الاقتاب ، إلّا حلومهم : وان وقذتهم نعسة السير ، هوّموا .
ينصّون في الليل البهيم قلائصاً لها ، من ذميل السير ، ورد ومطعمُ :
اذا ركبوا ، طارت بهم عزماتهم : وان قارعوا ، فالحمد كسبٌ ومغنمُ ؛
مذاويد لا تهفوا لروعٍ حلومُهم ، وان عزموا يوماً على الروع صمّموا ؛
وكلٌّ له في ذروة النجم غاية ، على اسم في ظلمة الليل انجمُ .
يُمسّح عن اجفانه سنة الكرى ويغضي على الملّات ، والناس نومُ .

حالة النثر الفني

واما النثر الفني فقد كان ضعيفاً متخلفاً ، يسهب في العبارة ولا يفصح ، ويجمل في الاشارة ولا يبين ، ويكثر من الجمل المترادفة والاستطرادات البعيدة بدون نظام ، ولغير مناسبة قوية توجب ذلك سوى الحرص على رصف الالفاظ والاستفاضة من معاني البديع وسوى المبالغة في الوصف والتهويل والاسهاب بما لا يمثل شعور الكتاب وآراء المنشئين ، وانما يمثل تكلفهم او تملقهم ورغبتهم في ارضاء المخاطبين وتقليد المتقدمين كما يبدو من بعض الرسائل المخطوطة ، ومن كتاب « الجوهر المجرّد » للشيخ علي السبيتي في شرح قصيدة علي بك الاسعد ، ومن خطبة الشيخ محمد علي خاتون في تأبين الزعيم حمد البك . ولعلّ الاغراق في التسجيع والترصيع والجناس والطباق الى غير ذلك من المحسنات البديعية اظهر مميّزات هذا النثر .

واليك هذه الجملة النثرية للأديب الفاضل الشيخ علي السبيتي من مقدمة كتابه في شرح قصيدة الزعيم المومى اليه ، نموذجاً لنثرهم :

« ان الادب مذ خمدت ناره ، وبنت شناره ، وسدلت استاره ، حتى تشابه ليله ونهاره ، ما زال علماً قد رفع مناره ، وجلّ اعتباره وحمدت آثاره ، ومدحت سماره وكملت اقماره ، وتعالى مقداره ، سيما ان شفع بالتاريخ نكاته ، ومزجت بالغابر اشاراته ، ووشحت بالوقائع فقراته ، ورصعت بالفرائد اياته وبالغرائب اشتاته ، وتحلّت بالعقود المنظومة لَبّاته . ولكم حاولت منه ابراز بدره وكشف سجاف خدره ، فاراني كالفرخ يروم نهوضاً فيقع ، او كالكسير يشتدّ لحاقاً فيرجع ، فأغضي عيني ارتماضاً واجرع ريقي اغتصاصاً ، فكم مسودة طرحتها من تمزيق الماعث ، وفريدة نبذتها نبذ يمين الحانث ، وجوهرة جانبتها مجانبة

الطامث ، حتى علقت كفّي بالدر النضيد والعقد الفريد والجوهر المنظوم بسلك القصيد ، الكلمة التي كادت ان تكون معجزة الايام وكنز المفضر للايتام ، لا جرم ان ناظمها ملك الفصاحة فاعتقها ، وجمع مكارم المحامد فاطنها ، فلذا ترى نسيبها ارق من نسيم الصبا ، وألين من عطور زهر الربى ، وأزكى أرَجاً من قيصوم النطيف ، وابعد مراماً من دعوى الشريف ، حتى اذا برقت بالافتخار رواعدها ، وتمالت بالايام الغابرة جدائدها ، امطرت المتون ورعفت ، واثلمت السيوف وللمرّان قصفت ، فأنت فيها ما بين روض اريض ، وزهر غضيض ، ومنمة صياص وشدة دلاص ، وان حدّثت عما مضى جاءت بالفحول تهدر ، والاسود تكشر ، والسمهري يمور ، والهندي يصور ، والبارود يرعد ، والنار تبرق ، والفرسان تدّعي والشجعان تتكنى ، وبوادر الخيل تخطر ، وبواتر الشوس تقطر ، بينا أنت في غض ناعم ، وطير ناغم ورذاذ ساجم ».

فهل ترى فيها من اثر البيان غير ما تراه من سجع متكلف واغراق زائد يبعد القارئ الحصيف عن الايمان بصحة المعنى وصدق الوصف ، ولا سيما اذا اطلع على اصل القصيدة المشروحة وعرف ان المختار منها لا يسمو عما تتضمنه قصص الزير وتغريبة بني هلال من شعر ركيك الاسلوب ، سطحي المعنى ، لا يدلّ على اكثر من كون صاحبه سامياً في فطرته ، بسيطاً في معارفه ، متأخراً في نظمه عن درجة اولئك المعاصرين له من نوابغ الطائفة وشعرائها ، كما يبدو لك في هذه القطعة المختارة من تلك القصيدة المعنية في الشرح والتفسير:

نموذج من فخرها وحماستها :

سموت بآباء كرام ، شادها بناء المعالي حيث كيوان ساطعُ ؛
لهم شرف يسمو على هامة السُّهى ، ومجدهمُ فوق المجرّة طالعُ .
همُ القوم من عليا نزار ، وطنابهم عاغه البيض الرقاق القواطعُ ؛
همُ مهدوا من عامل كلَّ صعبة ، وهم شيدوها ، والرماح شوارعُ ؛
وهم ورثوها بالصوارم والقنا ، وفي همم تندكُّ منها القوارعُ ؛
وهم لذوي الآمال كعبة آملٍ ، وعند لقا الأعدا ، رياح زعازعُ ؛
وهم في الوغى آساد كلّ كريهةٍ ، وفي السلم بالجدوى غيوث هوامعُ ؛
واياهم من عهد عاد شهيرة ، وفي كل عصرٍ هم بدور طوالعُ .
مناقب لا تحصى لهم ، ومآثر شذا عرفها في الهند والصين ضائعُ ؛
دعوا ذمم العلياء بالحمم التي اليها جميع العالمين خواضعُ .
وكم شامخ العرنين اضحى مذللا لدينا ، وكأس الذلّ والحتف جارعُ ؛
تروّي القنا في يوم معترك القنا ، وبتأرنا في هامة الندّ راكعُ

ألم تعلم الاقوام اني فتى الوغى ، وبدر ، اذا ما أظلم الخطب ، طالعُ !
واني من القوم الكرام ذوي العلى ليوث قراع ما لهم مَن يقارعُ ؛
وان دافعتهم من زمان صروفه ، يناضلهم عون من الله دافعُ .
وفي جبهة الايام ، خطت مآثر لنا سطّرتها في الدهور الوقائعُ ؛
وان نحن فاخرنا بآثار مجدنا ، فليس لنا عند الفخار منازعُ .

حالة التأليف

واما التأليف فانه قلما كان يتعدى الجمع بدون نظام ولا تبويب ولا موازنة كما ترى في كتاب « سوق المعادن » للشيخ محمد علي عز الدين ، او تلخيص المطوّلات كما يبدو من منظومة الشيخ موسى شراره في اصول الفقه ، او شرح المتون كما تجد في كتاب « مقصد الطالب » في شرح شافية ابن الحاجب للشيخ محمد سليمان الزين .

دور التطوّر والانتقال

لم يكن هنالك من سبيل لحرية الرأي والشعور الشخصي ، او للتغلب على المصطلحات العرفية والاعتبارات الرجعية ، اثناء تحكّم الفوضى ، وتمرّد الحكم الاقطاعي وما شاكله في البلاد العاملية . وقد سادت مع التعصب الاعمى روح الارستقراطية الفظّة في كل طبقة من الطبقات . لنؤاخذ اولئك العلماء والادباء اذا ما وقفت افكارهم وقرائحهم عند اساليب المتقدمين في التفكير او في التعبير عن العواطف التي كدنت تستفزهم وتحرّك ألسنتهم في القول ، او اذا اقتصروا في الشعر على المدح والرثاء والتهنئة او ما يشبه ذلك من الاغراض ، أوَ لم يكن الاستقلال في الرأي والعاطفة ، والتجرّد في النظر والحسّ الذاتي الى ما وراء المأثور من اقوال واساليب وعادات وتقاليد مرعية — يومئذ — اشبه بالجنون المطلق ، او بالخروج على كلّ نظام عرفي او شرعي يوجب الهزء والسخرية من صاحبه او يقضي عليه بالحرمان من كل حق محترم في الحياة ؟ فاذا اضفنا الى ذلك كله ما كان من تقلّص الثقافة العامة ، واعتزال الطوائف والبلاد بعضها عن بعض بموجب الفوضى في النظام ، وتضعضع الامن ، وعسر المواصلات ، فهل يعترينا شك في ان اول باعث على التطوّر والتجديد كان بطبيعته

حافزًا للهمم ، ومطلقاً للحس والشعور والارادة الذاتية ، هو تضعضع الحكم الاقطاعي ، وتعديل النظام الاداري ، وتيسير المواصلات ، مما مهد السبيل للحرية والامن ، وفتح الباب على مصراعيه لاختلاط الناس بالناس وللاطلاع على ما وراء المخطوطات من عوالم فكرية ومناح اجتماعية ومظاهر طبيعية … حتى صح لكل متفائل حرّ الضمير أن يتمثل بقول الشبيبي :

مضى زمانٌ قولك الحق به إثم ، وقول الإثم حقٌ مفترَضْ ؛
واليوم هذا قولنا ، فمن نخى؟ وهذه ألفاظنا ، فمن اعترَضْ ؟

العامل الثاني على التطوّر

ذلك ، في اعتقادي ، هو العامل الاول على التوسّع في النظر والتقدّم في البحث نحو الجديد ، اما العامل الثاني فقد بدأت طلائعه تنتشر بانتشار الصحف العلمية والادبية « كالمقتطف » و« الهلال » و« المنار » ، وما شاكلها نزعة ولهجة من المؤلفات الجديدة بين ايدي الطلاب والادباء العامليين ، ثم ما زال اثر ذلك ينمو ويشتدّ في اعماق القلوب الحانّة بفضل التوسّع في البحث ، والاقبال على المطالعة الى ان اخذت الحماسة للتجدّد والاصلاح بيد الحاج علي الزين مأخذها للعمل على اصدار مجلة « العرفان » وتحصيل امتياز قانوني باسمه من الحكومة العثمانية سنة ١٩٠٩ م . ثم تولى تحريرها نجله الاكبر ، الاستاذ الشيخ احمد عارف الزين ، وآزره على ذلك العمل الجليل الاستاذان الكبيران الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر موازرة بليغة ، فكان لهذه العوامل المجتمعة ، ولهذه الجهود المتضافرة ، ولهؤلاء الاقطاب النابهين ، مع من تأثر بنزعتهم على نحو من الموافقة كالشيخ أسد الله صفا ، والشيخ محمد علي حوماني ، وعلى نحو من المخالفة كالعلامة الشيخ عبد الحسين صادق ، والعلامة السيد عبد الحسين شرف الدين ، اكبر الاثر في تطور الحركة الفكرية هذا التطوّر السريع ، وفي ترويج الدعوة الى التجديد في الادب والتحرّر من نير التقليد في التفكير والعمل ، وان ظلّ هؤلاء السادة — بموجب الثقافة والنشأة الاولى ، وبحكم الاعتبارات والظروف الاقليمية الضاغطة — محافظين على جانب من اساليب التخيّل والتفكير والتعبير

القديمة لم يستطيعوا ان يتحللوا من اثر المحفوظات ، وحكم العبارات المأثورة في عهد الشباب ، على ما تداولوه في نظمهم ونثرهم من موضوعات جديدة ، وعلى ما استقلوا به من ملاحظات وآراء طريفة . فهم ما انفكوا في التعبير عن افكارهم المستوحاة من صميم الحياة العصرية يتوجهون في تركيز اساليبهم واخيلتهم ، وفي انتزاع تشابيهم وامثلتهم واستماراتهم ، الى الماضي البعيد اكثر مما يتوجهون في ذلك الى الحاضر القريب .

ما يمتاز به الادب في هذا الدور

اما الشعر فهو كشعر اولئك المخضرمين الذين شبّوا على ممارسة القديم من علوم اللغة وآدابها ، ودرجوا على احترام الاوضاع المألوفة والتقاليد المتبعة ، ثم تأثروا بعد ذلك بالجديد من الافكار والمواضيع ، وبالطريف من الاساليب والصور البيانية الخالصة من زخرف البديع وفضول اللفظ . فلذا يبدو عليه روعة القديم باساليبه وقوالبه ، وطرافة الجديد في مواضيعه واغراضه ، يزخر بكل ما يحملنا على احترامه وتقديره من حكمة بالغة ، ورأي سديد ، وقول فصل .

ثم هو ، في المناسبات الوقتية والموضوعات القديمة كالمدح والرثاء والنسيب وما اشبه ذلك ، لا يختلف عن شعر المتقدمين في جزالة اللفظ وفخامة المعنى ، والالتزام بكل ما التزموا به من تمهيد المقدمات ، والتخلص الى الغرض ، ثم الى الخاتمة ، مع مراعاة بعض المعاني والجمل التقليدية ، وفي ديوان « الذخيرة » للشيخ سليمان ظاهر ، وديوان الحوماني النماذج المتعددة لهذا الشعر .

واما في السياسة والوصف وتصوير بعض الظروف والحالات الاجتماعية ، فهو عالمٌ مستقل يمثل الشخصية الادبية والسياسية والفكرية لهذه الطبقة المخضرمة اصدق تمثيل بما يتجلى فيه من رائع البيان ، وسداد المنطق ، وصدق الوصف ، وخصوصاً في قصائد الشيخ سليمان كقصيدته إلى « ولسن » ، وقصيدته في وصف الربيع ، وقصيدته في قلعة بعلبك ، الى كثير من امثالها ، ولئن طغى سلطان الفكر على العاطفة في هذه القصائد كلها ، فذلك لأن الموقف موقف اتزان وتفكير واعتبار لا موقف تدله وهيام وبث ، وخصوصاً من الشيوخ ؟

وهذا نموذج من قصيدة الشيخ سليمان في قلعة بعلبك :

وقفتُ ، ولي عن الدنيا ذهولُ ، وما اودى براحلتي الذميلُ ؛
على عجماء صامتة النواحي وابلغ نطقها الصمتُ الطويل ،
مشت حقب عليها إثر حقب ، وجيلٌ حولها اودى ، وجيلُ ؛
وفي جنباتها كم فُلَّ جيشٌ ، وحُطّم ذابلٌ ، ونبا صقيلُ !
ولكن صابرت نوب الليالي ، ولم يرزح بها عبءٌ ثقيلُ ؛
ولم تذهب بجدتها الرزايا ، ولم يسمج لها وجهٌ جميلُ.
روت خبر الخلود ، وكم عليه بها قد قام منتصباً دليلُ ،
دُماها سافرات عن وجوه ، وما أخفى محياها سدولُ.
مبانيَ بعلبكَّ ، لأنتِ سرٌّ ، وليس لحله ابدًا وصولُ ؛
اليك الباحثون مشوا ظماء ، وآبوا ، والغليل هو الغليلُ ،
وما بك من تماثيل ونقش وأعمدة فأدمغةٌ تسيلُ ؛
هياكل ، والقرائح من قديم على جنباتها ابدًا مثولُ ؛
معابد للثوابت والجواري وما أفلت ، وتلك لها افولُ.
تودُّ لو ادّنى منها لسامي هياكلها على شغف نزولُ ؛
ترى فيها الدوالي قد نمتها الى كرمية الخلد الاصول.

مواضع الشك والتساؤل

ولعل الشيء الذي اصبح موضعاً للشك والتساؤل هو هذا « الغزل الصوفي » الذي انتهى اليه فن الحوماني في ديوانه الماثل للطبع « حوّا ». فانه ، على ما فيه من جزالة وعذوبة لفظية ، لا يشعرك وانت تقرأه ، بشيء سوى الشهوة العابثة التي تذوي لها العيون وتحمرّ الشفاه ، اما ان يشعرك بهذه العاطفة الوجدانية الملتهبة وهذا الفَناء في جانب المحبوب ، كما يشعرك صادق الشعر الوجداني في كل لغة وفي كل ادب وخصوصاً الادب العربي ، فهذا مما لا سبيل اليه !

الفلسفة المعقّدة

ثم اذا كان هناك شيء آخر في هذا الغزل الحديث بعرف الحوماني ، فهو هذه الفلسفة المتكلّفة او هذه الفذلكة « المعقّدة » في تمطيط تلك المعاني الغزلية القديمة التي كان يتجنّى بمثلها على القرّاء ويتيه اعجاباً في ديوانه الاول ، ثم اصبح ، من جرّاء النقد الصريح ، يتورّع من اتسامها باسمه ، فان هذه الفذلكة قد جنت على

هذا الغزل جناية كبرى وجعلت اكثر مقاطعه جسماً بلا روح او لفظاً بلا معنى ، كما تركت السامع يتيه في ظلمة داجية من الابهام والغموض لا يهتدي الى كثير من مذاهب الشاعر واغراضه ولا يقف على شيء من المنطق المقنع والصور المؤثرة .

التسامح في الوحدة والانسجام

هذا وقبل ان انهي الكلام عن الشعر في هذه الطبقة ارى من الواجب عليّ ان ألفت النظر الى هذا التسامح من شعرائها بما كان يتسامح به المتقدمون من انسجام الصور الشعرية وتوسيع الفراغ بين ابيات القطعة الواحدة . ثم الى هذا التفريط بما كانوا يفرطون به من وحدة الموضوع والغرض كما يتضح لك من شعر الشيخ سليمان في بعض قصائده ، ومن اغلب شعر الحوماني ، وخصوصاً في قصائده الكبيرة كتلك السينية التي انفق — على قوله — نصف عام في تأليف صورها وتنقيحها ثم نشرها مع سينيتي البحتري وشوقي ، وجعل جائزة سنية للفائز بتحليل القصائد الثلاث والمقارنة بينها .

فان هذا التسامح وهذا التفريط يشوّش على القارئ انتباهه ، ويضلّل شعوره ويصرفه عن متابعة القراءة . وليت شعري كيف يستطيع الشاعر ان يؤثّر في ذهن القارئ اذا لم يسلك به في مجرى منطقي مستقيم ، ويقوده في سياق معين ، ويرسم امامه وحدة فنية بدون ما تعقيد او غموض او اضطراب . واذا كان لشاعر الفطرة في محصور البداوة والجهل عذره من الاكتفاء بتداعي الافكار والخواطر ووحدة الباعث للذكريات عن وحدة الموضوع والغرض ، فما عذر شاعر القرن العشرين في عصر النور والثقافة والترف العقلي . . . وقد مهدت له المقاييس الفنية والابحاث الادبية الطريق السوي الى مثله الأعلى ؟

نموذج من سينية الحوماني :

رُبَّمَا انضج التجارب درسي لثلاثين من سِنِيَّ وَخمس
ولقد تكشف النضاء ليومي ، عن مآتي غدي ، بصيرةُ أمسي
قد لفظت الحياة يثنى بها الحرُّ وتثرى منها يدا كل جبس
ايها ذا الأديب ، صنك صفّي تحت احداثها ، ودرسك درسي الخ . . .

واذا كنت ممن يحبّ ان يجهد فكره وشعوره بدون ان ينتهي الى معرفة موضوع القصيدة وغرض الشاعر من نظمها ، فاستمرّ على قراءتها من البداية الى النهاية ، وامعن النظر في ضبط السياق ، او في توحيد الفكرة والموضوع ، او في ترتيب الصور والمعاني الشعرية على نسق منطقي متسلسل في مجراه نحو غاية واحدة ، فانك تضطرب وتضطرب اثنا. ذلك بين ان يكون غرض الشاعر من نظمها ان يصور لنا الخطط التي يجب ان نتمشى عليها في بناء المستقبل كما يهينك مطلع القصيدة هذا :

رُبَّما انضج التجارب درسي لثلاثين من سني وخمس
ولقد تكشف النطاء ليومي ، عن مآتي غدي ، بصيرةُ امسي

او ان يصور لنا « زهده » في الحياة كما يعدك البيت الثالث الى استقبال مثل هذه الصور :

قد لفظت الحياة يشقى بها الحرّ ونئرى منها بدا كل جبس

ولكن بينما انت تتوقع منه هذا المذهب او ذاك ، اذا به يقول :

كم اطوف البلاد شرقاً وغرباً فوق ظهرين من سفينٍ وعَنس
أيّ جد يقربه بي ، أيّ عزّ تترامى اليه ابنة نفس

فتتوسّم بانه سيحدثك عن اسرار عظمته ، وعن الجهود التي بذلها في بناء هذه العظمة .فاذا هو يميل بك الى انتقاص اوضاع الشام والعراق بقوله :

فاذا القول فيهما دارُ ملك ، واذا الفعل ثمّ دارةُ فلس
لا يغرّنك في الشآم رجالٌ موّهوا بالرياء وجه الغرس

ثم بينما تحسبه يريد ان يترسل في المحاسبة ، بعد ان اجهده البثّ ، كما يتراءى لك من قوله :

همّي همتي ، فنفسي نواحي في طلاب العلى ، ونفسيّ نفسي
أحرقوني بعد الممات ، اذا لم يُبْنَ من دارة الكواكب رمسي

اذا به يقول بعد ذلك ، وبدون فاصل :

اتحدّى إصلاح شعبي ، ولمّا تَمْدُ كفّاي لعبة المتخبي
لِمَ لَمْ يسمعوا ، وهم غير صمّ ؟ ، لِمَ لَمْ ينطقوا ، وهم غير خرس ؟

ثم يعود على اثر ذلك الى البثّ والشكوى بمثل قوله :

فاعجبوا للاديب ، وهو اديب ، واردًا في حياته ورد خمسِ !

وبينا تسمعه يندد بالاصدقاء بمثل قوله :

لا أَلوم الصديق ان يتناسى سالفاتِ العهود ، فالبعد يُنسي

اذا به يطفر لمباجة الملوك فيقول :

شرُّ ما في الانام نعمى مليك ، هي في شعبه عصارة بؤس

ثم لا تكاد تصغي الى قوله :

قل لمن حاول الزعامة فينا ، بجدا نائل وشدة بأسِ :
اخفقت بعدكم شجاعة عمرو ، وندى حاتم ، وحكمة قسِّ

حتى تراه يعقب على هذا الكلام بما لا يلتئم معه في مساق او فحوى :

أفأستعرض الحياة بنُويُركَ ، وفي لندن ، وغوطة مرسي ؟
ما الذي تبلغ البراعة في عدِّ السُّها ، وهي في انامل خمسِ !

وهكذا تراه يدور بك ويمضي في تنقلاته من فكرة الى فكرة ، ومن جوّ الى جو بغير مـا علاقة او مناسبة قوية تقتضي الانتقال ، وتحفظ السياق ، وتجدد الغرض ، وتصون الوحدة الفنية ، وتستدرج الحسّ والشعور والفكر الى التأثر بما تأثر به شعرنا ، او الى الاقتناع بما ذهب اليه من غاية وقصد .

ولعلّ الذي طوّح بالشاعر الى هذا الاضطراب والتكلف في اقحام الصور والامثال ، والى هذا التفكك والغموض ، هو ما كان شائعاً في عرف المخضرمين من الامتداح بالتمعن وطول النفس . فقد كانوا لاجل ذلك يسترسلون في القصيدة الواحدة لإثبات كل ما يسنح لهم من خواطر ، ونعرض كل ما يستطردون اليه من صور او ينتهون اليه من خيال ، من دون ان يحتاطوا في ذلك لما يناسب الغرض والمقام ويطابق الامكان والواقع ، او يحفظ الوحدة ويضبط السياق ، ويرضي الذوق والمثل الاعلى في الفن والجمال .

حالة النثر الفني

واما نثرهم فقد ابتدأوا فيه على طريقة الخوارزمي المسجوعة كما يبدو من بعض رسائلهم القديمة ، ثم تطوّر بتطور الحياة الثقافية ، وتطوّر الافكار

والاذواق الادبية حتى استقرَّ على هذا النمط الخاص الذي يراعى فيه الترتيب والقياس وتحرير العبارة من الحشو والفضول ، ووضعها بطريقة تناسب الغرض والمقام في سهولتها وإيجازها او قوتها وتبسطها ، من غير ما تأنق في الوشي او تدقيق في الصياغة ؛ ذلك بأن اكثر الموضوعات التي مارسوها هي مواضيع علمية لا تقتضيهم باكثر مما يقتضيه البحث العلمي من ترسّل وصفاء . وهو في جملته بليغ الأداء ، واضح القصد ، خالص من شوائب الغرابة والابتذال .

ولعل هذه الخصائص مع ما يكتنفها من صحة اللغة واتساق الالفاظ وشرف العبارة الى هدوء العاطفة ودماثة اللهجة ، اظهر ما يمتاز به نظمهم ونثرهم ، وهـذا نموذج من نثرهم مأخوذ من مقـال « التقيَّة » للاستاذ الشيخ احمد رضا :

« فطر المرء على حب المصلحة ودفع المفسدة وتأصلت فيه محبة الذات فهو يجتهد لحفظ كيانه وبقاء ذاته وترقية شأنه . وقد اختلفت اهواء الناس وميولهم فتقسموا احزاباً ومذاهب تضاربت غاياتها واختلفت مقاصدها ثم لعبت السياسة دورها فزادت الشقة بعدًا واتسعت مسافة الخلف بين الفِرَق فكانت تتنازع السلطة والمقام ولكنما العزة للكاثر والحق للقوة ، فصرف كل فريق لإنماء القوة في حزبه وحَرِصَ على الكثرة في قومه لينال بذلك الرفعة والمقام الأعلى ويستأثر بكرسي السلطة ويتسنى له نشر مبدأه ، واصبح كل ذي غاية يحاول حمل الناس اليها ليسعف في الوصول اليها حتى اذا علا شأنه واستضعفت القوة المناوئة له عمل على معاكستها ليستمرئ عيشه هنيئاً بلا منازع . وحيث رأت الفئة المغلوبة على امرها ضعفها عن المقاومة كتمت امرها وأسرت دعوتها واتقت عدوها الى يوم يساعدها الحال فتظهر . هذه هي التقية .

ان التمسك بحبال التكتم للفئة المستضعفة في مكان كثرت عليها فيه العيون وعظمت المراقبة وكبر النكال ، هو امر طبيعي لها تؤيده المادة ويقبله العقل لتحفظ به كيانها حتى تجمع اليها امرها وتصدع يوم ترى مندوحة بما تؤمر .

ان الفئة الغالبة اذا استبدت بمحو الفئة المغلوبة وجردت سيف سطوتها وسيطرتها من غير انصاف ترجع اليه ولا عدل يكتنفها ولم تكن الفئة المغلوبة لمت شعثها ولا تمّ لها تأسيس كيانها ، اذا كان الامر كذلك — وظهرت هذه الفئة المغلوبة في حالها هذه كان ظهورها نصب التظهير للغالبة عليها وكان ذلك الظهور مسعفاً للمستبدة بمعرفة المناوئ فتمعنها قتلاً حتى تأتي على آخر ابنائها الا من اعتصم بحبل التقية منهم وتكون حينئذٍ تلك الفئة المغلوبة قد هدمت كيانها بيدها وعُدَّ في عرف السياسة ظهورها هذا تهورًا لا تحمد عليه .

لو أعلن أولو الحق حقهم غير متمسكين بحبل التقية حيث يمد عليهم الاستبداد جناحه وليس لهم قوة المغالبة والدفاع ، لوضعوا سيف المستبد على رقابهم ودعوه الى قتلهم فاذا انام ذهب

حقهم شهيد تورّم حتى بغى اثرم وكان عملهم هذا وان كان نصرة للحق ولكنه من حيث المآل خذلانًا له. »

وجهتهم في الاصلاح والتجديد

على انك ترى مما يكتبونه او ينظمونه ان وجهتهم الى الاصلاح السياسي، والتجدّد الاجتماعي اكثر منها الى الاصلاح والتجدّد الأدبي، وان المتتبع لآثارهم البيانية لا ينتهي الى مقال ادبي ينتقدون فيه الاساليب العقيمة والاوضاع المزيفة من حيث يوضحون الخطط القويمة، ويحصون المقاييس الصحيحة، التي يجب ان تتبع وتراعى في النظم والنثر، ما خلا مقالًا قديمًا للشيخ سليمان ظاهر في « آداب اللغة العربية »[1] حاول فيه شيئًا من هذا ولكنه لم يتعدَّ فيه مذاهب المتقدمين كابن قتيبة وابن خلدون، ولا اعتمد على غير النقل والاستشهاد بالاقوال المأثورة، ثم بعض مقالات لسواه لم يتعرضوا فيها لغير السرقات الشعرية ولما اختل من اوزان وقوافٍ، او شذ عن القياس من تراكيب او ثقل على السمع من ألفاظ وجمل. اما الفكرة، واما بقية العناصر الذاتية للادب من عاطفة وخيال ومنطق، فلا ترى لها في محاولاتهم من الاهتمام ما يوضح معالمها ويصلح دخائلها بنظرة تحليلية او وثبة انتقادية.

عذرهم في التجدّد الادبي

وقد يكون عذرهم في ذلك ان التطور الاجتماعي في كل زمان او مكان يتقدم التطور الادبي، وان التجدد الادبي في ايام نهضتهم لم يكن له معالم واضحة ومناهج مستقيمة ليتقوا بها على ضعف المقاييس القديمة، فقد كان طلابه الى عهد قريب في مصر وسورية والعراق يضطربون في تحديد المراد منه أهو في ترخيم الالفاظ وترقيق الاساليب وتنويع الاوزان والقوافي، او في وصف الرياض والمناظر الطبيعية، او في تصوير الحوادث السياسية وضرب الامثال

---

١) العرفان، المجلد الخامس، سنة ١٩١٣

وفلسفة العبر واستنهاض الامة وانتقاد اوضاعها الاجتماعية ، او في وصف المخترعات العصرية واستبدال المواضيع القديمة بموضوعات جديدة ، الى غير ذلك من مقاصد واقتراضات بعيدة عما يقتضيه التجديد في جوهره وحقيقته ، فان الترخيم والترقيق وتنويع الاوزان والقوافي ، وتغيير المواضيع لا يجدي شيئاً في تطور الادب ، اذا لم تستقل الافكار وتتجرد الأخيلة وتنسجم الصور وتصدق العاطفة والشعور ويخلص البيان بطبيعته من اعتساف الحذلقة والاغراب ، والا كان التطور للتقليد لا للأدب في جوهره وحقيقته .

اثرهم في النهضة العاملية

وعلى كلٍّ فحسبهم اثرًا وفخرًا أن كانوا اول من ارضى القديم وانصف الجديد ، ثم اول من تشجع وعمل في هذه « البيئة » على تحرير الكتابة من قيود الصناعة اللفظية التي شب عليها الجميع فاحسنوا الاسترسال بها على مقتضى السليقة والطبع بعد ان غلّها السجع وغلب عليها التعمل ، وأن كانت لهم هذه اليد الطولى في تطور الحركة الفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية ، والاخذ بيد كل من اخلص لمستقبل امته ونهضة بلاده .

التأليف والمؤلفات في هذا الدور

اما التأليف في هذا الدور فانه قد كثر ، وكثر المتطفلون عليه ، وخصوصاً في المواضيع الدينية والتاريخية ، ولكنه على كل حال لم يزل يضطرب في وضعه ومنطقه بين الاساليب القديمة والحديثة لتغلب المؤلفين الذين انقطعوا في دراستهم للقديم ، واحتذوا في التأليف طريقة من سبقهم على المؤلفين الذين تأثروا بالاساليب الجديدة وساروا على قبس من نورها .

ولا ابالغ اذا قلت ان أنفس كتاب في موضوعه وفائدته واستقصائه يمثل الفئة الاولى خير تمثيل هو كتاب « اعيان الشيعة » للعلّامة السيد محسن الامين ، وقد طبع منه للآن ١١ مجلدًا نهج فيه مؤلفه نهج ابن خلكان في « وفيات الاعيان » بعد ان قدمه بنبذة عن احوال الشيعة وخالص اعتقاداتهم .

واما ما يمثل الفئة الثانية ويتفق مع تطورها الفكري والادبي فان اكثره

الى الآن لم يتهيأ له النشر لنطلع عليه الاطلاع الذي يبيح لنا الحكم عليه ، والموازنة بينه وبين غيره من الكتب ، ولعل انفس ما عرفته من هذه المؤلفات هو :

« متن اللغة »[1] للشيخ احمد رضا ، عضو المجمع العلمي العربي في دمشق ، وهو قاموس عام شامل بالغ فيه المؤلف في اختيار المصادر الموثوقة ، وفي ترتيب مواده وفي إضافة كل ما تقره المجمع العلمي في دمشق والمجمع الملكي في مصر من اوضاع جديدة وألفاظ حديثة واصطلاحات مفيدة ، كما انه تأنق في الاشارة الى المعاني العامية بعد ان وفى المعاني الفصيحة حقها ثم لم يهمل التفرقة بين صيغة اللفظ باللغة الفصحى وبين صيغته في العامية اذا كان مستعملاً بها .

« معجم قرى جبل عامل »[2] للشيخ سليمان ظاهر ، عضو المجمع العلمي العربي في دمشق ، وهو عبارة عن تاريخ عام لجبل عامل ، قد رتب على حسب اسماء القرى والحواضر العاملية ، فشرح عند اسم القرية كل ما اتصل بها من حوادث سياسية وادبية وعمرانية ، مع اشارة فصيحة الى الأسر والأعلام الذين نشأوا فيها ثم الى ما خلفوه من اثر صالح . ولعل هذا الاسلوب في جمع أشتات هذا التاريخ المبعثر هو خير اسلوب لضبط اصوله وترتيب فروعه على نسق مستقيم يشوق القارئ الى استقصاء صفحاته .

« الشيعة في التاريخ »[3] للعلامة الشيخ محمد حسين الزين ، وهو بحث ضافٍ نزيه عن فرق الشيعة وعقائدهم ومواقفهم الشهيرة ، مع تراجم رجالهم وشرح وافٍ لاسباب تشيعهم من بدء نشأتهم الى اليوم .

---

١) خط

٢) خط

٣) طبع في صيدا سنة ١٩٣٨

دور التجديد والترف الفني

ويمكننا بكل اطمئنان ان نذهب الى ان هذا الدور قام على أسّ من الثقة باولئك الاقطاب ، وعلى ركن من التقدير لما كانوا ينثرونه هم وزملاؤهم من موآزري مجلة « العرفان » علمياً وادبياً كالشبيبي ، والشرقي ، والجواهري ، وبدوي الجبل ، فقد كان لهذه الثقة ولهذا التقدير اثر كبير في بعث الناشئة على التعلم الحديث في المدارس العالية ، وفي حمل الشباب المتأدبين على تتبع كل جديد من الكتب المؤلفة والمترجمة ومن الصحف العلمية والادبية ، وعلى التشبع من ابحاث قادة الفكر ومحاولة التجرد في الرأي والذوق الشخصي من كلّ تقليد ومحاكاة ، كما انه كان لانتشار الصحف اثره الفعّال في تجاوب افكار النابهين وفي تيقظ شعورهم وتلطيف اذواقهم ، وانطلاق اخيلتهم ، وإذكاء روح النهضة والطموح الى الحياة الحرّة والاستقلال بكل معنى من معانيه الشخصية والاجتماعية .

الطبقات الثلاث

وباستطاعة الباحث اذا توسع في نظره لهذه الكتل الادبية التي تتألف من هؤلاء الشباب الذين تثقفوا بثقافة عربية خالصة ، وهؤلاء الذين تثقفوا بثقافة غربية مشوبة ، واولئك الذين شبوا على التأثر بهؤلاء وهؤلاء ، باستطاعته ان يقسم ادباء هذا الدور — دور الشباب — إلى طبقات ثلاث .

الطبقة الاولى

١ — طبقة تعتمد في ادبها على الفطرة السليمة ، ثم على ثقافة نخبية كل ما تيسره للطالب الطموح دراسة الآداب العربية والعلوم الاسلامية على الطريقة القديمة ، ثم الالمام بالصحف والكتب الادبية الحديثة التي ألفها وترجمها ادباء العرب في مصر وسورية والعراق واميركة ، ثم الاتصال بالطبقات الممتازة في طوحها ونظرها الى الحياة - وان في درس آثار النابهين من ادباء هذه الطبقة كالاساتذة حسين مروّة ، هاشم محسن الامين ، صدر الدين شرف الدين ، ما يوضح خصائصها الادبية ويزيد القارئ استبصاراً بميزات الباقين .

الخصائص الفنية

وقد يكون اظهر ما تمتاز به من خصائص بيانية حرصها على صدق التعبير وانتزاع الصور مما تتأثر به النفس من حياة واجواء ومشاهد ومواضيع ، ثم مبالغتها في توقي الغامض والمبتذل من الألفاظ والتراكيب ، وفي إيثار القوة والرصانة ما وجدت الى ذلك سبيلاً . فهي ، مع تجددها وتأثرها باساليب التفكير الحديثة ، ومعالجتها لكثير من الموضوعات والنواحي الادبية على وجوه لم تكن معروفة عند من تقدمها من الادباء العامليين ، ما برحت تتأنق في صياغة عباراتها اكثر مما تتعمق في نحت معانيها ، وربما كانت في إحكام الاسلوب ابرع منها في إحكام الفكرة واستقصائها من سائر وجوهها شرحاً وتعليلاً ، اللهم ما خلا بعض الافراد في بعض المواضيع التي وفقوا فيها الى الكمال من سائر وجوهه ولذا جاء ادبهم — في ارفع مصاديقه — مطرد السلك ، محكم السبك ، سائغ الصور ، بعيد الغور ، لا يشوبه ضعف ولا قلق ولا افتعال .

اثرهم في النهضة الادبية

على ان الانصاف يجب علينا — قبل ان نتجاوز الحكم على ادب هذه الطبقة — ان نصرح بان افرادها ومن تأثر بنزعتهم من الشباب قد كانوا بدورهم أوسع اثراً من غيرهم في تطوير الحركة الفكرية وتحرير الاساليب البيانية واشد اقداماً على مجابهة الاوضاع الرجعية ومحاربة العناصر الضارة والتقاليد العقيمة . ذلك بان اكثر ابناء هذه الطبقة قد نشأ في احضان الارستقراطية نشأة رجعية فكان لهم من تاريخهم الارستقراطي ما يزيدهم جرأة وصراحة في اعلان فكرتهم وفي المدافعة عن مبادئهم ، وكان لهم من حرمة أسرهم ومن مكانتها في الاوساط الشعبية ما يصونهم من هوس المغرورين وصلف المفتونين بمنزلتهم الاجتماعية من العلماء والزعماء والادباء الجامدين ، ثم كان لانتقادهم وثورتهم على ما نشأوا عليه من افكار عقيمة وتقاليد رجعية ابلغ الاثر في إفحام المتعصبين للتقاليد البالية وخذلان المحافظين على الاوضاع الرجعية وفي تشجيع الناشئين نشأة جديدة والمتحفزين للحياة الحرة في هذه البيئة المنكودة الطالع ، أضف الى هذا كله ، ان الظروف بتطوراتها السياسية والاجتماعية والدفاعية جاءت

كلها مبررة لمطامحهم مؤيدة لنزعاتهم .

الطبقة الثانية

٢ ــ وطبقة قد اخذت عليها الثقافة الحديثة كل باب وكل سبيل حتى اصبحت وليس لها من الايمان بتراثها الادبي ما يحملها على احترام القديم او تأثر وجهه ، وانما غلبها الاكبار للآداب الاوربية من افرنسية وانكليزية ، واستبدّ بها التأثر باساليبهم في التخيّل والتفكير والتعبير الى حد اوشك افرادها — لولا ان يمسكهم التعصب لتاريخهم ولقوميتهم ويروض ألسنتهم الاتصال بالخاصة من اصحاب اللغة الفصحى والاسلوب الرصين — ان يضطرب معه بيانهم وتلتوي اساليبهم وتكون لغتهم اقرب الى اللغات العامية والاعجمية — في ارتباك العبارة ، وابتذال الالفاظ ، وتشويش الصور ، والتباس المعاني — منها الى العربية الفصحى ، وذلك لاضطراب ملكاتهم الادبية وعقائدهم الفنية بين اللغات والثقافات والآداب المختلفة الاساليب والاتجاهات والخصائص .

مذاهبهم الادبية

اما مذهبهم في الحياة الفنية فانه — اذا استثنينا منهم الاستاذ كامل مروة والسيدة وداد سكاكيني — يظهر ميلهم الطبيعي الى رسم شتى العواطف والآ . الادبية وتصوير مختلف الاهواء والازمات النفسية ، ثم يتجلى بقلة اهتمامهم لتطوّر النزعات القومية ، والمشاكل السياسية ، والاوضاع الاجتماعية التي باتت الشغل الشاغل للجمهور . ونظرة شاملة لآثار اللامعين فيهم كالسيد عبد اللطيف شرارة ، والسيد خليل هنداوي ، والآنسة عزيزة الزين ، تردك واثقاً مطمئناً الى هذا الزعم الذي أزعم .

الخصائص الفنية

ولعلّ اظهر ما تمتاز به هذه الطبقة من خصائص هو الدقة والاناقة في تلوين الصور وتنويع الاخيلة وترويض المعاني الغريبة ، ولهذا تبدو افكارهم واخيلتهم بالجملة اطرف وادق واروع من لغتهم وبيانهم ، مما يبرر القول بان معانيهم تزين ألفاظهم ، اللهمّ الا من شذّ من الافراد بمارستهم للآثار العربية

البليغة الاساليب الفصحية اللفظ حتى صحّت لغتهم واعتدلت اساليبهم وسما بيانهم في اروع مظاهره وادق مناحيه عن الابتذال والتعقيد والتنافر ، واصبحوا مناط الامل والرجاء في تقدم النهضة الفكرية وقيادة الناشئة الادبية الى هدفها الاسمى بما اتقنوه من لغات مختلفة وأوتوه من ثقافات متنوعة تساعدهم على التوليد والتطور، وتوفر لهم اسباب الخلق والابداع في كل نوع من انواع الادب. فان الثقافة البسيطة قد اصبحت اليوم لا تستطيع ، في بناء النهضة العتيدة ، ان تنير الطريق لحرية التفكير ، وتمهد السبيل لتجديد الحياة الفنية وتقديم الغذاء الكافي والمثال الصالح للاجيال المقبلة .

الطبقة الثالثة

٣ ــ وطبقة كلُّ ما تعتمد عليه في ادبها هو الفطرة السامية والذوق السليم والاحساس المرهف . واما ثقافتها فهي من الإلمام بما يحدث في البيئة ، ويشيع في المجتمعات ، ويُذاع في الصحف السيارة من آراء وافكار ومذاهب ادبية وسياسية واجتماعية . ولئن تهيأ لغيرها من الادباء أن يجددوا باشراق من التعليم العالي ووحي من الثقافة الاوربية فان ابناء هذه الطبقة لم يكن لهم مما يوقظ شعورهم ويلطف اذواقهم ويتوجه بهم هذا الاتجاه الطريف الذي ارتفع بأدبهم الحيّ عن مستوى الآداب الرجعيّة ، غير ظروف بيئتهم وعوامل مجتمعهم وغير ملابساتهم واختباراتهم الخاصة .

ولا نبالغ اذا قلنا ان ألمع شخصيات هذه الطبقة هم السادة الشعراء عبد الحسين عبد الله ، موسى الزين شراره ، نور الدين بدر الدين.

خصائصهم الفنية

ولعلّ اظهر ما يميّز ادبهم من خصائص فنية هو الوضوح، والصدق، والصراحة ، والجاذبية ، وان افكارهم واخيلتهم اشبه بلغتهم واساليبهم البيانية ، فكل منها طبيعي يساير « الدارج » والشائع في النوادي والمجتمعات الخاصة والعامة ، ليس فيها سوى السهولة المألوفة للجميع . فلا هي مبتذلة فتندّ عن ذوق الخاصة ولا هي من العمق بحيث ترتفع عن طرق العامة في الفهم والادراك ، وقد يكون

شعرها بما فيه من نقد صريح وسخرية لاذعة وترسّل جريٍ في وصف كل ما يتأثرون به من شؤون قومية او نفسيّة — اصدق صورة للحياة الاجتماعية في هذا الجيل وفي هذا العصر وفي هذه البيئة ، ثم اوثق شاهد على تطوّر الشعور وثورة الفكر . ودونك هذه المقطوعة من شعر موسى الزين شراره :

حسبت عاملَ في بلواه منفردًا ، اذ حرّم الشيخُ فيه رؤيةَ الصحفِ ،
حتى سمعت ، وبعض الصحب أكّد لي بأنّ ذلك مأخوذ عن النجفِ ،
عجبت من لجنة الآثار كيف سهت عن عرض اشياخنا في معرض التحفِ !

اتحاد العناصر الذاتية في الشعر والنثر

هذا ونظرًا لأن الشعر والنثر الفني لا يختلفان في رأي الاكثرية من ادباء هذا الدور إلّا بالوزن والقافية ، واما باقي العناصر الذاتية للأدب من عاطفة وخيال ومنطق فانها انمــا تتفاوت — قلة وكثرة وقوة وضعفاً في الشعر والنثر — بتفاوت الموضوعات والمناسبات والحالات النفسيـة التي تسيطر على الاديب اثناء العمل الفني لا بتفاوت نوع الكلام بين الشعر والنثر ، ونظرًا لذلك اجملنا القول عن خصائص الشعر والنثر عند الكلام على ادبهم واكتفينا من الشواهد بالمميزات الفنية له بنوع واحد من الشعر والنثر .

التأليف في هذا الدور

اما التأليف في هذا الدور فانه إلى الآن لم يعدُ ان يكون من هذه الكتب المجموعة من المقالات المختلفة الموضوع والغرض باختلاف الظروف والحالات التي اوحت بها وأملتها على قلم الكاتب ، او من هذه الدواوين المؤلفة من القصائد والمقطعات الشعرية . وهذا النوع من التأليف لا يختلف في جملته عن ادب القصيدة والمقال وقد فصلنا القول فيه .

اما التأليف بمعناه الخاص وكما يتطلبه الذوق الارستقراطي المترف في منطقه وتفكيره فانه — اذا استثنينا كتاب «نحن في افريقيا» للاستاذ مروّه ، وبعض الكتب المدرسية ككتاب «الانشاء بالمثــل» للاستاذ كمال بيضاوي — الى الآن لم تتهيأ له اسبابه ومؤهلاته بين ادباء هذا الدور وشبابه المثقّف ، او

انه لم يصلنا منه ما يمثل النماذج العالية التي تشجعنا على اجهاد الفكر في الدرس والموازنة وتخولنا اطلاق الحكم النهائي .

القصة في الادب العاملي

ما انفك العامليون الى الامس القريب يعتبرون القصة ملهاة عامية او نوعاً من الادب المنحط لا يليق بالطبقة الارستقراطية في علمها وادبها ان تعنى فيه عنايتها في القصائد والمقالات ، ولئن هم مارسوا فنّ المقامات – وهو مما يمتّ الى القصص باقرب الاسباب – فلأن لغته غير لغة القصص ولان غرضهم منه غير الغرض منها .

بيد ان تيّار النهضة الادبية في هذا العصر دفع بالطامحين من شبابنا وخصوصاً هؤلاء المتحمسين للآداب الاوربية ، وهؤلاء الذين تأثروا بهذا الجوّ القصصي الممتع الذي خلقته جريدة « المكشوف » البيروتية ، وجريدة « الهاتف » النجفية ، ومجلة « الرواية » المصرية ، الى محاولات جريئة موفقة في عالم القصص كان لها وقعها في النفوس واثرها في توجيه الانظار نحو القصص وفي اقبال المتأدبين على قراءته وممارسته حتى تطوّر تطوراً محسوساً واصبح له بينهم مذاهب مختلفة واساليب متفاوتة .

مآخذ القصص العاملي

ولكنه مهما بالغنا في شأن هذا التطوّر فان القصص العاملي الى الآن لم يتسنّ له ان يتحرّر من شوائب التقليد والمحاكاة ولم يتهيأ لهُواته من المرونة والاطلاع او التخصص الثقافي ما يكفي لإبرازه فناً كاملاً له متخصصاته ومميزاته الفنية بين القصص العربي المعاصر ، وله اثره ومنزلته المرموقة في نفوس الجمهور .

ولذا ترى اكثر قصصهم لم تسلم مما أُخذ به بعض القصص اللبناني ، من ضعف اللون المحلي ، او ضعف العقد ، او الحشو .

فان اللون المحلي الذي يزيد في اطمئنان القارئ ويضاعف تأثره لا تكاد تشعر به، وانت تقرأ بعض هذه القصص العاملية، اذ لا ترى اثراً بيّناً لهذه الخصائص الشرقية ولهذه التقاليد والآداب العربية التي تلامس حياتنا اليومية وتتصل بكل

ما نباشره من قول وفعل ، وانا نخال نفسك في اثناء قراءتها انك في بيئة غريبة عما نشأت فيه من اجواء وعادات واعتبارات فلا هي غربية خالصة ولا هي شرقية صريحة .

وكذلك العقدة المناسبة المعقولة التي تبرز الفكرة وتزيد في التشويق والتلذذ وتأنق في تشخيص ابطال القصة ، فانها الى الآن قلما تتوفر الا للقليل من القصص العاملية .

ثم ان حرص بعض كتابنا على الاستطراد لوصف كل ما يرون به من حالات ومناظر واشخاص ، كثيراً ما جرّهم الى فضول الحديث وحشو الصور النابية عن كل ما يقتضيه سياق القصة من تسلسل الحوار واتساق الوصف وايجاز القول مما يضلل ذهن القارئ ويخمد حميته .

موضوعات القصص العاملي

اما موضوعات قصصهم فاكثر ما نراها منتزعة من صميم حياتهم الشخصية، والاجتماعية ، والثقافية ، والفنية ، كما ترى في قصة « اثم » لهاشم محسن الامين وقصة « الاعمى » لهاشم حسن الامين ، وقصة « بين الحياة والكنة » لوداد سكاكيني ، وقصة « اديب » لحنين مروة ، وقصة « القلم الوديع » لمحمد شرارة ، وقصة « ضباب » لعبد اللطيف شرارة . وقصة « ابي » لصدر الدين شرف الدين وهذه القصص او المقالات القصصية هي من ابلغ ما قرأته لهم في هذا الباب .

اغراض القصص العاملي

واما اغراضهم وغاياتهم من ذلك فهي قلما تتعدى تصوير الجمال الفني ترويحاً للنفس من اعباء الشعور المكبوت والاحساس الممض . بيد انهم حين يتوفقون في تصوير ذلك ويحكمون فنّ قصصهم يصلون الى ما قد يرمي اليه غيرهم من الاغراض الاجتماعية والغايات الانسانية، لأنهم قلّما يتأثرون بموضوع قصصي إلا لأنه شاذ بمآله عن المثل العليا او موافق لها ، ومتى هم برعوا في تصوير هذا الشاذ بشذوذه او افلحوا في رسم هذا الموافق للمثل العليا بكل ما له من مشخصات مغرية فقد تمكنوا من ابلاغ رسالتهم في تقريب هذا المثل من

نفوس القراء او تبعيده.

واما الاسلوب فهو لا يختلف عن اسلوب الكاتب في مقالاته، الّا في التزام السهولة والرقة في ألفاظه ومراعاة السلاسة والبساطة في تراكيبه.

الاعتداد بالجيل المقبل

ذلك هو رأيي الخاص في ادب هذه الطبقات الثلاث، وهذه هي الصورة الموجزة لخصائص الادب في هذا الدور الاخير، فاذا لم يتأكد منها ان ادباء الشباب قد ادّوا رسالتهم ووصلوا الى المرتبة التي يطمحون اليها او الى الغاية التي يتمنونها على غيرهم من الادباء حين يفندون رأيه وينتقدون ادبه، فعذرهم في ذلك ايضاً ان التطوّر الاجتماعي والثقافي في بيآتهم التي شبوا فيها وتأثروا بآدابها وتقاليدها واجوائها، لم يبلغ بعد مداه ولم يصل من الحرية واليسر والرقي الى الحد الذي يؤهل الناهضين من ابنائه ويساعد الطامحين من شبابه على تحقيق اقصى مطامحهم في العلم والادب والحياة الحرّة، وعساهم — بما يبدو من اقبال الناشئة على التعليم العالي ومن تنافس الزعماء والعلماء والادباء والشباب المثقف في انشاء المدارس الحديثة، وفتح الغرف المجانية للمطالعة، ومن تعاون الطبقات الشعبية والجمعيات المنظمة على نشر العلم وتعميم الاصلاح في الحواضر والقرى، ثم توالي الهجرات العلمية والاقتصادية الى اميركة واوربة، والعراق وافريقية، وتأثر المهاجرين بما يتصلون به هناك من بيئات متمدنة ومجتمعات راقية وحياة حرّة تشعرهم بقيمة الحرية وتحفزهم للعلم والعمل الصالح والسير قدماً الى الأمام — عساهم بمثل هذه العوامل والاسباب يبلغون اقصى أمانيهم وقصارى غاياتهم من السموّ والتقدم على يد الجيل المقبل. فان مثل هذه المساعي الحميدة وهذه الجهود الصالحة التي اصبحت محلًا للتنافس والمسابقة من الزعماء والعلماء والادباء والمهاجرين. وان كانت ضئيلة فاترة بالنسبة لما يتطلبه هذا العصر وهذه البيئة من عوامل الاصلاح ووسائل النهضة وحرارة المسعى... لأجلّ من ان تذهب هدراً ولا يجري مفعولها في مثل هذا الجيل الناشئ الذي يتوقد ذكاء ويلتهب غيرة وحماسة لكل جميل صالح ولكل جديد نافع في الحياة.

مَظاهِرُ الأَدَبِ في جَبَلِ الدُّرُوزِ*

بقلم سعيد ابو الحسن (السويداء)

مقدمة عامة

ما كان الشعر لينطفئ بانطفاء اللغة الفُصحى. فالشعر العربي كان مزدهرا في الجاهليّة يوم كانت لكل قبيلة من قبائل العرب لغتها الخاصة، قبل أن توحّد الاسواقُ، ثمّ القرآن، هذه اللغة، فتحلّ محلّها جميعاً لغة قريش التي ظلّت لغة العرب حتى نهاية ملكهم وتفرّقهم طوائف واقاليم متعدّدة يعيش كل منها عيشة خاصّة، في ظل حكم اجنبي، على الغالب.

وإن تكن العربية الفصحى قد لجأت في عهد التفكك هذا الى الزوايا والأديرة والكتاتيب، فإنّ الشعر قد لجأ — وأولى أن يقال عاد — الى قبائل العرب البادية والحاضرة، الى عشائر الجزيرة العربية والبادية السورية، والى اهالي القرى في سوريـة الطبيعية كلها. وكان من الطبيعي ان يكون هذا الشعر بلغة القبائل العاميّة: لبعد عهدهم عن التكلم باللغة العربية الفصحى من جهة، او لتأخر الحالة العلمية بينهم من الجهة الأخرى. فهم كأهل الجاهلية، ينظمون الشعر باللغة التي يتكلمونها. وما كان هذا ليضير الشعر من حيث هو شعر، وان يكن قد اضرّ بلغته من حيث هي لغة فصحى موحّدة شاملة لاقطار العرب جميعها. فعادت الحياة الشعرية بين القبائل العربية — والبادية منها او القريبة من البادية بنوع خاص — الى سالف ازدهارها. واذا بنا نرى لكل قبيلة شاعرها (او شعراءها) يذود عن حياضها هاجياً او مدافعاً يذكر مفاخرها، ويترنّم بحوادث الغرام فيها، ويذكي نار الحمية في شبانها، ويدعو الى التمسك بالفضائل العربية المشهورة كافة افرادها. واذا بنا نرى عهداً حافلاً بأجود الشعر،

* دراسة قُدّمت الى معهد الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف (فرع الادب العربي).

قريباً الى النفوس بملامسته حساسيتها الطبيعية ، بعيداً عن الصنعة التي كثيراً ما يفرضها العلم فرضاً حتى على فريق من الشعراء الطبيعيين الذين تستبد فيهم قوانين سيبويه وقواعد الخليل ، فتخرج بهم عن حقيقة الشعر التي هي الطبعية والسذاجة والفطرة قبل كل شيء . اذ من النادر ان نرى ، في زماننا هذا ، ملكة اللغة الفصحى تصبح من القوة بحيث تزحزح ملكة اللغة التي يتكلمها الشاعر حتى يصح ان يُقال انها هي لغته الطبيعية ، يتكلمها دون ان يعمل الفكر في قواعدها وقوانينها . إن هذا كان صحيحاً حتى اواخر العصور العباسية ، لأنَّ العرب والمستعربين كانوا يتوارثون اللغة الفصحى بالتكلم والتعلم ، فهي لغتهم التي بها يتفاهمون والتي بها يكتبون .

وقد تعود هـذه الحال اذا استطاع العرب ان يوحدوا ثقافتهم وبرامجهم التعليمية ، ويتدرجوا نحو توحيد اللغة — لغة الكلام ولغة الكتاب — في كافة اقطارهم ، بحكم اضطرارهم الى التفاهم بلغة واحـدة تحل محل لغاتهم المختلفة التي يصعب تفاهم الكل بواحدة منها . وهذه اللغة الموحدة لن تكون الّا العربية الفصحى .

ولكن هذا لن يتم في وقت قريب لقوة الملكة العامية في نفوس العرب اليوم، واختلاف طرق معيشتهم باختلاف اقطارهم والدول التي سيطرت على هذه الأقطار . وقد اطلعت على كثير من شعر العرب بلغتهم العامية فوجدته لا يقل خصباً وجودة عن شعر العرب بلغتهم المضرية ، وان يكن لا يخضع لقواعد النحو والصرف . فالنحو والصرف شيء والبلاغة شيء آخر . اعني ان الكلام يمكن ان يكون بليغاً ، يمكن ان يعبر عن الفكر اجمل تعبير دون ان يكون الفاعل فيه مرفوعاً والمفعول به منصوباً . وهذا رأي قال به ابن خلدون في مقدمته ، وهو رأي مصيب .

سمعت قصائد تصف معارك عرب آل سعود مع عرب ابن الرشيد ، فوجدتها لا تقلّ جمالًا عن وصف المعارك في الشعر الجاهلي او الاسلامي . وهي متينة السبك موحّدة الموضوع كأحسن قصائدنا الفصحى . وكذلك القول عن سائر انواع الشعر العامي البدوي . فهو شعر البادية جيل كلّه ايًا كانت القبائل او

المناطق التي قيل فيها . ولو كان لي ان اجمع ما قاله عرب البادية بوصف القهوة ومعمولها ، او وصف الحب والكرم وما الى ذلك ، لاجتمع لي من كل نوع ديوان ضخم كله من الشعر الجيد .

وكان في نية الله ان ينقل قسماً من الدروز ، الذين يفتخرون بنسبهم العربي اليماني — على الغالب — الى جبل حوران فيحتكوا باهل البادية ويخالطوهم في سلم او حرب ، ويحكموا عاداتهم المشائرية ، ويرووا اشعارهم ، ويسردوا قصصهم الجميل ، وينظموا الشعر على طريقتهم فيوجدوا لنا في هذا الجبل شعراً جيلاً يعبّر عن آلامنا ، وآمالنا ، ويذكر فضل الزمان علينا او ظلمه ايانا ، ويؤرخ جهادنا الطويل في سبيل البقاء والكرامة . — شعراً يزخر بالأنفة والاباء ، بالشجاعة والكرم ، بالوفاء وصدق العاطفة ، بسلامة النية ، والتعلّق بالجوهري الجوهري من الحياة . حتّى ليحق لنا ان نفتخر باننا خلقنا في هذه البقعة من الأرض حياةً عربية خالصة بشعرها وفضائلها وعاداتها وكلامها ، حتى لا يستطيع احد أن ينكر علينا اننا قمنا باكثر من واجبنا في المحافظة على عادات قومنا وآدابهم واخلاقهم ، وكنّا اول من اعاد الصلة والتعارف فالتعاطف بين بدوهم وحضرهم ، ومهّدنا اكثر من سوانا لعودتهم الى الحياة الحرّة عن جدارة وفهم لحقيقة الحرّيّة .

١ – توطئة

كان تجمع الدروز في لبنان ، والتفاف كل عائلة من عائلاتهم حول رئيسها ، واتفاق الكلمة بين رؤساء العائلات ، سبباً لقوّتهم ومناعة جانبهم . وكانت هذه القوّة مجلبة شرّ لهم : فلم ينجوا من اضطهاد المماليك اياهم ، وتدميرهم منازلهم ، واتلافهم اغراسهم ، حتى جاءهم اضطهاد العثمانيين وعسفهم . واصبح لبنان يضيق بهم على وسعه ، واصبحوا يفكرون في تركه واللجوء الى وطن سواه يبنونه كما بنوه وينسون فيه ما جرّته عليهم العظمةُ من الشرور والويلات .
فهاجر قسمٌ منهم في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الى حاصبيا وراشيا وغوطة دمشق ، وأسسوا في هذه البلاد خلايا درزيّة ما لبثت ان نمت وكوّنت مجموعات

ذات شأن لا يقلّ عن شأنها في المتن والغرب والشوف .

ثم جاء القرن السابع عشر ، وكان الاضطهاد العثماني قد بلغ الذروة ، وكان الخلاف العائلي الداخلي قد استفحل امره فهاجر قسمٌ من الدروز بقيادة الامير علاء الدين المعني واستوطنوا القسم الغربي الشمالي من جبل حوران من ازرع الى نجران . وما زالوا يوسعون دائرتهم في موطنهم الجديد هذا ، حتى عمروا كل قراه من السهل الحوراني غرباً ، حتى الصحراء شرقاً ومن الجبّانة جنوباً ، حتى مشارف دمشق شمالاً . وشاءت الظروف ان تقع في لبنان حوادث الـ ١٨٤٥ والـ ١٨٦٠ المشؤومة فنزحت طائفة جديدة من العائلات الدرزية واتخذت جبل حوران مسكناً لها ، نازلةً بين اهله على الرحب والسعة. وكانت مجاعة الحرب الكبرى — وكان جبل حوران قد طوّعت ايدي الدروز العاملة عواصي ارضه وصيّرته ينبوع خيرات لا ينضب . فلجأ دروز لبنانيون الى حوران مرّةً اخيرة ولم يعد ، الى لبنان ، بعد الحرب ، إلّا قسم منهم وبقي الآخرون في الجبل متخذينه وطناً نهائياً لهم . — وكانت سهولة المواصلات بعد الحرب سبباً في وصول موجات جديدة من الدروز اللبنانيين حتى اصبحت الجالية الدرزية اللبنانية في السويداء وفيرة العدد ، تقبض بيدها على قسم من مرافق المدينة ومتاجر البلد .

ولا يعتقدنّ أحد أن كل هذا الانتقال والاستقرار حصل بسهولة . ذلك ان هذا الجبل الغني سابقاً باحراجه ومراعيه وينابيعه ، الغني بمناخه المعتدل وجوّه الجميل ، كان مصيفاً لعربان البادية تأتيه مواشيهم في القيظ ولا ترحل عنه إلّا في اواخر الخريف . وكان من الطبيعي أن يقاوم هؤلاء البدو استيطان الدروز في الجبل فحصلت حروب كثيرة ووقعت سلسلة طويلة من المعارك في سبيل البقاء ، انتهت بانتصار الدروز بعد ان سقوا ارض الجبل بدمائهم مثلما سقوها بعرق ابدانهم ليحصلوا منه على لقمتهم ويتفيّأوا من سمائه خيمةً تحميهم من عوادي الدهر وظلم الظالمين . وتألّب على الدروز في وطنهم الجديد هذا كلُّ غازٍ طامعٍ في الاستيلاء على سورية واخضاع السوريين . فحاربهم ابراهيم باشا المصري ، وكانوا إذ ذاك قبضةً من الابطال لا يُعبأ بها ، فحاربوه وانتصروا عليه وقتلوا

من قوّاده وجنده عددًا لم يقتل مثله في المعارك التي دارت بين الباشا الفاتح والسلطان العثماني . وحاربهم العثمانيون مرّات عديدة فحاربوهم ايضاً ، وصارت كل بلدة في الجبل لها معركة تُعرف بها ، وكل زاوية من زوايا الجبل مثوىً لعددٍ من بنيه الابطال بازاء المقابر الطويلة العريضة يرقد فيها جيشٌ لجب من اعداء الجبل المغيرين.

وهكذا كان الجبل الصغير بمساحته وعدد سكّانه غنيًا بالذكريات المجيدة ، غنيًا بالملاحم المشؤومة ، بالليالي السود والبيض ، بالانتصارات والمجازر ، بآثار العمران الناطقة بكرومه وحقوله وبساتينه ، وآثار الدمار الماثلة في احراجه المندثرة وينابيعه المغوّرة.

وكان على الدروز ان يكونوا على جانب عظيم من اليقظة لا ينام الرجل منهم إلّا وسيفه تحت وسادته خوفاً من مفاجأة العدو على حد قول شاعرهم الاكبر شبلي بك الاطرش :

عالسّين : سيفك لا يفارق وسادتك وخلّيك حرز من الرجال حريص

وكان عليهم ان يحيوا ليالي ساهرة حافلة صيفاً وشتاء منتظرين صوت المستنجد . لا يذهب الفلّاح منهم الى حقله إلّا وسلاحه في كتفه . فلا امان ولا راحة ولا ضمانة لهؤلاء القوم إلّا قوّتهم . وكيف يعملون على تغذية هذه القوّة وما تتطلّبه من حماسة واستمرار إن لم يلجأوا الى الاغاني ، والاهازيج ، ولعب الرباب ، وابتكار وسائل اللهو القويّ ، لهو الابطال في فترات الاستراحة القليلة الكائنة بين المعركة والمعركة : فكان لنا الشعر الحماسي ، تاريخ حروبنا ، ومذيع اخبارنا ، ووسيلة دعايتنا ، ورمز تفوّقنا.

وكان الاتراك ، عندما يظفرون ، يحاولون قتل روح الحرّية والتمرّد فينا الى الابد . فكانوا يشنقون البعض ، وينفون البعض الآخر ، ويعذّبون من بقي.

وكان المنفيّون منا يحنّون الى هذه البقعة من الارض بشعر رقيق يدلّ على مبلغ تعلقهم ببلدٍ غذّوه بدمائهم ومزجوا ارضه بروح نشاطهم واجتهادهم وجهادهم ، فاصبح لهم قبلة يوجّهون اليها افكارهم وقلوبهم وارواحهم : فكان لنا شعر الحنين والفراق.

وفي ساعات اليأس التي تتلو الانكسار ، او تسبق وصول الجيوش الزاحفة ، كان القوم يجلسون للمذاكرة فتتلاظ السنتهم بالاخلاقيات والمواعظ : فكان لنا الشعر الأخلاقي.

وكان الناس بعد الانتصارات الرائعة ، وفي فترات الراحة المستحقة ، يذكرون ما للقلب من واجبات يقضونها ، ويميلون الى اخذ قسطهم من متع الحياة البريئة : فكان لنا الشعر الغرامي.

وكانت الحروب والمشقات تظهر افعال عددٍ من الابطال في كل فترة من فترات الحياة في الجبل ، فتثير الاعجاب في نفوس المواطنين ، وتدفعهم الى تمجيد هؤلاء الابطال : فكان لنا الشعر المدحي.

وكانت هذه الحروب نفسها تفجع الناس كل يوم بعزيزٍ جديد ، فيبكونه رجالًا ونساء . والرجال لا يريدون ان يجعلوا للضعف والحزن محلًا في نفوسهم ولا للموت قيمة في نظرهم ، فلا يذكرون الميت إلّا قليلًا ، تاركين امر الحزن للنساء وحدهنّ : فكان لنا الشعر الرثائي ، وخاصة الندب والنواح النسائيان.

واشترك الدروز بالحركة العربية وكانوا في طليعة الجيش الفيصلي عند دخوله الى دمشق واشتغلوا بالسياسة السورية والعربية بعد الحرب : فكان لنا الشعر السياسي.

ثم كان الإحتلال، وكان تقلّب الأحكام والسلطات، وعمّ فساد الاخلاق جميع الناس إلّا أقلّهم ، وظهر على مسرح الحياة العامة في الجبل وجوه جديدة وطغت موجة السعاية والوشاية والتجسس فلم ينجُ من غمرتها إلّا نفر قليل جدًا : فكان لنا الشعر الانتقادي ، او الاجتماعي .

وكانت الثورة ، ثورة ١٩٢٥ ، فاحدثت الى جانب الشعر الحماسي المعروف قبلًا بما فيه من وصف المعارك وذكر المفاخر ومدح الابطال ، شعرًا جديدًا ذا مرام سياسية عامة .

وما ان انتهت الثورة حتى عاد المتجسسون الى تجسسهم واصحاب المطامع الى مطامعهم ، فكان الشعراء لا يستطيعون ان يبوحوا بما في ضمائرهم ، وإن هم قالوا شعرًا قالوه تلميحاً : فصار فيه شيء من الرموز والتعقيد . ــ وانصرف اكثر

الشعراء الى الغزل . واصبحوا ينتبهون الى ما يجري في القرى من حوادث فيصفونها بشعر بسيط فيه نكتة وفكاهة وفيه انتقاد لاذع وتهكم مرّ .

قبل ان انهي هذه التوطئة اريد ان الفت النظر الى شيوع الشعر بين ابناء الجبل عموماً . فكل جبليّ شاعر في وقت من اوقاته إن لم يكن بالطبع فبالمحاكاة . ولكن لم يشتهر من الشعراء — مع كثرة عدد المشهورين منهم — إلّا الذين اتاحت لهم سعة الرزق والراحة وقتاً كافياً ، وجوّاً ملائماً لنظم الشعر كلما دعت اليه الحاجة أو دفع اليه الوحي .

ولما كانت سعة الرزق والراحة لا تتوافران إلّا لاصحاب الاملاك الواسعة الذين يكلون امر اشغالهم لسواهم ، ولا يهتمون بسوى استقبال الضيوف والزائرين وحضور الاجتماعات ، والاهتمام بالامور العامة دون الشؤون البيتية ، لذلك كان عدد الشعراء من شيوخ القرى ، بالنسبة الى عددهم ، اكبر من عدد شعراء العامة . لأن هؤلاء كان عليهم ان يكدحوا في هذا البلد المستحدث لتحويل اراضيه البور الى حقول كثيرة الخصب إن لحسابهم الخاص و إن لحساب شيوخهم . كان لهم من مكافحة الفقر وبذل الجهود الجبّارة في سبيل الرغيف شاغلٌ كافٍ عن الشعر والغناء ، وان يكن هذا الشاغل عاجزاً عن منعهم من الاشتراك بكل المعارك والاتيان باعمال جبّارة في حقل البطولة والدفاع عن الوطن . حتى نظموا في هذا الجبل قصيدة رائعة بل ملحمة كبرى سطورها كرومنا وحقولنا ومتاجرنا ومحترفاتنا ، وكلّ ما يؤمّن الخير والرغد لحاضرنا ومستقبلنا . واما حبرها فنجيع الافئدة وعرق الجباه .

القسم الاول : ما هو الشعر الجبلي ؟

لن اتكلم عن مظاهر الادب عامة والشعر خاصة في جبل حوران قبل نزوح الدروز اليه . ذلك ان هذا الادب يدخل في عصور الادب العربي عامة يزدهر بازدهاره وينحطّ بانحطاطه ، دون ان تكون له مزايا خاصة به تميزه من سواه . غير ان هناك فائدة واحدة نجنيها من ذكرنا بعض من مرّوا بهذا الجبل

او سكنوا فيه او ذكروه في شعرهم للدلالة على اهمية مركز جبلنا الجغرافي وكونه نقطة الاتصال بين الصحراء العربية والشام : فهو اول ما تقع عليه العين من البلاد المعمورة شمالي جزيرة العرب. ولذلك كان اهله يتصفون بصفات اهل الشام من وجوه عديدة من حيث طُرُق المعيشة ، وترتيب المنازل ، والاعتناء بالزراعة ، يُضاف اليها بعض صفات البدو اهل الصحراء : من الاهتمام بجوادث البادية ، والعناية بتربية الماشية ، والاكثار من التحدث بماضي العرب وحاضرهم ومستقبلهم ، واتقان جميع اللهجات العربية الحاضرة منها والبادية ، والاختلاط باهل المدن واهل الصحراء في آن واحد ، والاتجار مع هؤلاء واولئك ايضاً .

ولذلك كان الادب الحوراني يجمع الى رقة الادب الشامي وشمول مواضيعه ، خشونة الاسلوب البدوي ، وصراحة اللهجة البدوية ، وصدق العاطفة البدوية . فكما تهبُّ على الجبل رياح البحر المتوسط من وراء جبل الشيخ ، او جبل الكرمل ، او جبال عجلون ، كذلك تلفحه الرياح الصحراوية الجافة القاسية ، فترى كروم العنب في الجبل تجاور منابت الشيح والقيصوم ، وترى مواشي الجبل تقضي الشتاء في البادية والصيف في اعالي الجبل وسفوحه ، وطيور الجبل فيها الحساسين والحجل . الى جانب القطا والحبارى . والذئب والضبع الى جانب الغزال واليربوع.

مرّ امرؤ القيس وصاحبه بجبل حوران ، وهما ذاهبان الى قيصر بدليل قوله :

ولمّا بدت حوران ، والآل دونها ، رأيت فلم تنظر بعينك منظرا

وقد جاء النابغة الذبياني حوران مرات عديدة يقيم بين الغساسنة ، يهلل فيهم شعره ، وينال محبتهم وكرمهم.

وجرير جاء حوران ايضاً فذكر «الصفاة التي شرقيّ حورانا» وذكر «اذرعات» وسواهما .

وكان في العصور الاسلامية شعراء حورانيون من جبل حوران اشهرهم : محمد بن ميّاس العرماني ، من بلدتي عرمان ؛ والقاضي الصرخدي من صرخد (وهي اليوم صلخد) — والشاعر المتاني من متان — (وهي اليوم امْتان) — ونجم الدين القمراوي من قمراء — (وهي اليوم قيرة) — ولكن هؤلاء الشعراء

لا يعنينا امرهم كما اسلفنا لبعد الشقة بيننا وبينهم من جهة ، ولكون حوران في وقتهم لم تكن له شخصية خاصة ليدرس ادبه على حدة . وكذلك القول عن الشعراء من آل شهاب ، اصحاب شهبا . او مدينة « فيليبوس العربي » وهو الجبلي الذي جلس على عرش روما ، كما هو معروف لدى العموم . لن اتكلّم عن الشعر الجبلي او الأدب الجبلي قبل نزوح الدروز اليه للأسباب التي ذكرت .

على انني من جهة اخرى لن اقتصر في هـذا الدرس الموجز على الشعراء الدروز . فانمـا انا ادرس شعرًا وادباً نبتا ونميا في ارض هذا الجبل سواء أكان الشاعر او الاديب درزيًا ام سنيًا ام مسيحيًا . المهم ان يكون هذا الأديب او الشاعر من ابناء الجبل ، لا ان يكون من ابناء الطائفة الدرزية .

واني في هـذا لا افعل إلا ما يفعله ابن صحراء العرب عندما يطلق اسم « الجبلي » على البدوي والحضري من اهل الجبل على السواء . « فالجَبَلي » هو الدرزي والسني والمسيحي ، هو ساكن القرى الجبلية في الأعالي والسفوح او ساكن الخيام في سهول الجبل وبطاحه .

عَرُوض الشعر الجبلي ، لغته ، بحوره ، تعبيره

جرت العادة ان يُدرس الأدب من جهة المعنى اولاً ، ومن جهة المبنى ثانياً . غير أن هذه الطريقة المدرسيّة ، وان كانت لهـا محاسن جمة من حيث التنظيم والترتيب ، وتقديم الأهم على المهم ، لا يمكن اتباعها في جميع الابحاث الأدبية على الاطلاق ، وخاصة في بحث كالذي نحن بصدده يتناول لوناً خاصاً من الأدب الشعبي له لغته الخاصة واوزانه الخاصة وتعابيره الخاصة . وكما ان لكل شيء بابه كذلك باب شعرنا الجبلي مبناه . ولا يمكن لأحد ان يطمع بمعرفة حقيقة هذا الشعر ، إن هو لم يبدأ بفهم مظهره ، بفهم عَروضه الخاص ، ولغته الخاصة ، واوزانه الخاصة .

عندما جاء الدروز الجبل وجدوا فيه قبائل بدويّة شتى لهـا شعرها واصطلاحاتها ، ووجدوا اهل السهل الحوراني ولهم شعرٌ كشعر الاعراب ينظمونه بالأوزان نفسها واللغة نفسها . وإذا عرفنا ان اول شعر قاله الدروز في الجبل

الجديد كان موجّهاً اماً الى البدو ، وإما الى الحورانيين الاصليين في اغراض شتى : كالاستشارة ، والمعاتبة ، والتهديد ، والتفاخر وما اشبه ؛ كان من البديهي انهم استعملوا طريقة البدو والحورانيين نفسها عملاً بالحكمة البسيطة القائلة : « كلّم الناس بما يفهمون ». ومن البديهي ايضاً ان هذا الشعر — وكل آثار ادباء الجبل شعر حتى السنوات الاخيرة — ما كان مُعدًّا ليُقرأ بل ليُغنّى ، هو شعرٌ للغناء ، للموسيقى قبل كل شيء . فعبثاً نحاول ان نفهمه ونتذوّق ما فيه من متعة ، إذا نحن اكتفينا بمطالعته . عبثاً نحاول استشفاف الروح الجبلية الشاعرة من خلال السطور المخطوطة . يجب علينا ان نحضر بين الجبليين في سهراتهم الحافلة ، وقد صمت جميع الحضور ، مصغين الى المغنّي يوقّع الحانه على الرباب ، وصوته ينعش ارواح الحاضرين بما يغنّيه من القصائد الجبلية البديعة . هذا هو « الشاعر » بعرف الجبليين . ويندر ان تجد شاعراً لا يحسن التوقيع على الرباب كما ان اكثر المجيدين التوقيع على الرباب من « الشعّار » . لذلك عمت لفظة « الشاعر » الذين ينظمون الشعر بالفعل ، والـذين يضربون على الرباب سواء أكانوا من الشعراء الموسيقيين ام من الموسيقيين فحسب . وهذا طبيعي في مجتمع يفتقر الى العلم — الى القراءة قبل كل شيء — فالشعر يُحفظ ويُلقى ويُتناقل ويُروى ، وقلّما يُكتب . او هو يُكتب للحفظ فقط ، لا للنشر . أمّا اللحن الغنائي الشائع فهو اللحن الحورانيّ المعروف منذ القديم ، بدلالة ما اورده ابن خلدون في مقدّمته إذ قال ، في معرض كلامه على الشعر العامي المعروف في عصره : « واهل المشرق من العرب يسمّون هذا النوع من الشعر بالبدوي ، وربما يلحّنون فيه الحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثمّ يغنّون به ويسمّون الغناء به باسم الحوراني نسبةً الى حوران من اطارف العراق والشام وهي من منازل العرب الباديـة ومساكنهم الى هذا العهد . » — اه .

ولسنا بحاجة الى القول ان هذا الشعر منظوم بلغة العامة ، بلغة اهل الجبل — جبل حوران — اي بلغة دروز لبنان مع بعض التجدّد فيها بسبب تأثير اللهجات المختلفة التي عرفها اهل الجبل عند جيرانهم البدو واهل السهل الحوراني . كانت هذه اللغة في بادئ امرها بسيطة طبيعية لا تكلّف ولا صنعة فيها ،

شأن شعراء البدو الذين لا يختلف كلامهم الشعريّ عن كلامهم العادي . ولكن هذه اللغة — مع الاسف — قد دخل عليها التكلف فيا بعد ، فاصبح لدينا شعراء عاميون يحتاج قارئهم ، وهو المتكلم لغتهم ، الى اجهاد نفسه وكدّ ذهنه لفهم لغتهم المعقدة المصطنعة . وقد لا يحجمون عن اختراع كلمة من عندهم ، ونسبتها الى بدويّ بعيد مجهول فتصبح مقبولة متداولة . وهم يكثرون من استعمال الجناس خاصة في القوافي ، وفي بعض الفنون الشعرية التي سيأتي ذكرها حتى لتراهم يتسابقون الى ايراد اكبر عدد ممكن من الجناسات للفظة الواحدة في القصيدة الواحدة ، حتى لتأتي اللفظة بضع عشرة مرّة ، وكل مرّة بمعنى يختلف عن سائر معانيها . وفي هذا فوائد كثيرة لا تنكر ، ودلالة على براعة وذكاء يستحقان الاعجاب ، ولكنّ في هذا ، قبل كل شيء ، خروجاً عن نطاق الشعر العامي المطبوع ، شعر السليقة الفيّاض الذي عرفه شعراؤنا المتقدمون بوجه الاجمال . والكلمة العامّية لا تأتي متحركة ابدًا . بل هي ، مبدئيًا ، ساكنة ، إلا فيما ندر . وهذا الخروج عن القاعدة يُعد شذوذًا لأن تحريك آخر الكلمة يتعمده الشاعر إما لتقويم الوزن واما لتقليد الشعر الفصيح . وهذا التقليد اضرّ كثيرًا بشعرنا العامّي . إذ صيّره عند بعض الشعراء هجيناً يُشكّ في نسبه : فلا هو فصيح ولا هو عامّي . بل هو بين بين . وسوف نأتي ببعض امثلة من هذا النوع الخليط عند كلامنا على الشعراء .

❁

امّا بحور هذا الشعر العامي فكثيرة . ولعلّها تساوي عدد بحور الشعر الفصيح إن لم تكثرها . وكل بحرٍ من البحور العامة مشتقّ من بحرٍ من البحور الفصيحة — ما عدا حركات الاعراب — :

فالشروقي عندنا يلائم الطويل مثلُ :

بَرْقٍ لَمَعْ عَجِلِ المَطَرْ ، يَوْمْ بَنَّا ، خَمّ الفروعْ وفاضْ يَمّ الشّابَا

امّا القصيد فيأتي على ثلاثة اوزان : الاول كالطويل مثل :

عَفَا الله عَنْ قلبٍ تَخذّا الهمْ قِسمةْ ونفسٍ أبتْ عنْ مطلبِ النّاسْ زاهدهْ

والثاني كالرجز مثل :

أَوّلْ كَلامي احمدُ الربّ العَلِي القادر المعبود مولانا الأَزَلْ

والثالث كالوافر مثل :

قلت لها : ألا يا زهر ، قرّي أنا بملك ، انا ذيبُ الشليّهْ
لناخذ عن سداد الشيخ عشره ، وناخذ عن سداد الشب ميّهْ

و« الفنّ » يتفق مع الكامل الساكن التاء المحذوف الضرب :

البارحهْ من واهجي قلت آها العينْ وجدّى والعبرْ اعماها
مختارٌ من غزلْ الزمانْ وفتّلهْ والجوف من شب الزفير حفاها

و« الجوفي » على وزن الرّمل :

الدّروز آلساجيمْ واحدْ بلدْ يتطحون الضدْ ونْ علقْ الحداهْ

و« المَنّى » او « المصلوع » كالرجز مثل :

يا جبَلْ هالشيخ ، ياما ارفعَكْ الله يبشلَكْ صواعقْ تنلمَكْ

و« القرّادي » كمجزوء الخفيف مثل :

يا مولانا ، لا تنهمْ عَصُوربّاً لا تنتمْ
بالليل طبختو للسّمْ اصبحتو فيه مقتولينْ

و« حداء » الفرسان كمجزوء الرجز مثل :

يا صَلْخَدْ ، يا ركنَ الطوينْ حرمتْ عليكم يا حَمَدْ
حرمتْ عليك سكوتها ما طول البنلة ما تلَدْ

و« المجيني » او غناء الهجّانة كاحد انواع الكامل مثل :

عرجة ذلولك ما هي حجّه مَير انت بالذلّ راضي به (١)

و« الموشّح » كاحد انواع الكامل ايضاً :

يا عيد عالمرور ما احلاك امّا على المنظام زاد بَهلاك
شو كان ينكّد على المعبود لو كن بالافراح شاركناك

اما قصيدة « السّحجة » فعلى وزن مجزوء الرّجز مثل :

يا وَلَد وبْني انتبيهْ واكربْ زهابكْ فوقيهْ
وأنْ كنْتْ ناوي لك نيَهْ يا شوق الغزا الذبلاني .

---

١) مَير : ما غير

وهناك اوزان اخرى فرعية لا يكثر النظم عليها ولذلك فانني لا اتطرق لذكرها ، خوفاً من الإطالة .

سبق لي أن قلت أن هذا الشعر الجبلي وُضع للغناء لا للنشر ولا للمطالعة ، ولذلك لا يخلو من فائدة ان اذكر الحالات او المناسبات التي يُغنى بها كل نوع من الانواع التي مرّت بنا :

أمَّا « الشروقي » — ويدل اسمه على انه لعرب الشرق — والوزن الأول من اوزان « القصيد » فيُتغنّى بهما في السهرات الحافلة ، في المضافات ، يرافقهما الرباب : ففيهما الهدوء ، وفيهما الطول ، وفيهما كل ما يلزم لتمضية الوقت بصورة فنية لذيذة . وفيهما من طول النَّفَس والتعمق في المعاني مـا يدفع الى التفكير والتأمل والانطواء على الذَّات . ولذلك كانت اهمّ المواضيع وارفع المعاني واكثر الافكار رصانةً ووقاراً تُنظم على هذين الوزنين . وتتخلّل الغناء بهما فترات من العتابا — على الرباب ايضاً — للترويح عن الذهن واعداده لاستماع موضوع جديد . وإني حضرت سهرات كثيرة من هذه السهرات الخالدة التي تتجسّد فيها حياة الشعب باجمعها ، فما كنت اشعر بانتصاف الليل ولا باقتراب الصباح . بل كان الوقت يمرّ ، لشدّة النشوة ، بسرعة هائلة . ولا تنقضي السهرة إلا وتترك وراءها شوقاً ملحاحاً الى سهرة جديدة امتع واطول .

اما « الهجيني » و« الحداء » فامرهما معروف ، وهما لغناء الفرسان والهجّانة . وقد يتغنّى الفارس « بالهجيني » والهجّان « بالحداء » . وليس اجمل من كوكبة من الفرسان تخبّ وتحدو في سفح من سفوح هذا الجبل او سهل من سهوله .

امـا « الفنّ » فيُسمَّى كذلك اماً لشدّة اعتناء قائله بالصناعة الشعريّة ، وسبك الالفاظ والتفنّن بالمعاني ، والحرص على الجناسات الصعبة المتعدّدة ؛ وإمَّا لأنهم عندما يغنّون هذا النوع من الشعر « يَفنّون » اي يدورون دائماً ، وهم صف واحد يغنّي الذي في رأسه على اليمين ، ويجيب الباقون وهم اربعة او خمسة ، ويدورون بتمهّل واتزان بشكل شعاع دائرة مركزها آخر رجل بالصف ومحيطها الرأس الذي يغنّي . وفي هذا النوع من الغناء لازمة هي اوّل مقطع من القصيدة .

فعندما ينتهي بيت من الابيات التي يغنّيها الرأس بقافية اللازمة ، فالذين معه يكتفون بترديد اللازمة فقط. وإذا كانت قافيته مختلفة ردّدوا بعده ما يقول: وهكذا دواليك . واكثر ما يستعمل هذا الغناء في الاعراس وسائر الافراح لكثرة ذكر الحبّ فيه وبعده عن التشاؤم والحزن ، إلّا فيما ندر .

واما « الجوفي » او « الجوفيّة » فهو لحن مأخوذ عن اهل الجوف في شمالي جزيرة العرب. وهذا اللحن حماسي حربي للغاية . فقبل ان تمشي البيارق الى الحرب ، او الى ايّ امرٍ آخر مهمّ ، يصطفّ اكبر عدد ممكن من الشبّان — وقد يبلغون المئات — بشكل دائرة كبرى ، فيغنّي بعضهم ويجيب الباقون دفعة واحدة حتى كأنّ القرية تقوم وتقعد ، وكأنّ الارض تهتزّ حماسةً ، وكأن النشاط يتفجّر من الجماد . وكلما وصل شاب جديد ، كان متأخرًا يتأهّب للسفر ، اخذ مكانه بين اثنين من الصّافّين وشاركهم الغناء. حتى السفر . وهم يرافقون اللحن بنقل الخطى نقلًا متوازنًا ، وتتحرّك الدائرة على نفسها بتمهّل ، وتزيد الحماسة شيئًا فشيئًا وإذا بالكفوف تصطفق ، وبالأرجل تعلو وتهبط ، وبالشبان يرقصون — وهم ممسكون بعضهم بايدي البعض الآخر — رقصة الحرب الرائعة ، وبالعبارات النارية تنطلق في الفضاء .

واذا ما سار البيرق ، واصطفوا وراء حامله عشرات عشرات ، اخذ صفّان او ثلاثة يغنّون الحداء ، ومثلهم يغنّون « الجوفيّة » ، ومثلهم « الهجيني » ، وكل فريق يرقص الرقصة الملائمة للحنه . واللاعبون بالسيوف يتقدّمونهم ، وامام الكل لاعب « المجوز » وهو قصبة مزدوجة تُخرج الحانًا جيّاشة جميلة. وهكذا حتى لا تصل الجموع الى ساحة المعركة إلّا وهي نشوى لا تهمّها كثرة الجيوش المعادية وقلّتها ، ولا تقف قبل ان تتوسّط صفوف الاعداء، وتهزمهم او تبيد.

قلت انّا إذا خرجنا من هـذا الجوّ الجبلي الخاصّ ، لا يمكننا ان نفهم الشّعر الجبلي فهماً صحيحاً . فانت إذا قرأت مثلًا هذا البيت :

إنْ قتِلْنو يا النشامه ، الموت سنّه وإنْ سلمنو سالمين من الشّانه

لا تجد فيه شاعريّة فائقة الحدّ ، بل هو ساذج كل السذاجة إذ يؤكد لهؤلاء الشجعان انهم إذا ماتوا قتلًا فالموت سنة ، وإذا سلموا فهم سالمون من

الشماتة . لكنّ رأيك فيه يتغيّر، ولا شكّ ، إذا سمعت جمعاً من الشبّان يغنّونه وراء بيرقهم ، ويردّدونه نحو العشر مرّات بلحنه الخاص ، عرفت سرّ شجاعة هؤلاء الشبّان واستهزائهم بالموت وتفضيلهم ايّاه على الحياة في الجبن والشماتة . ومثل هذا القول عن الابيات القليلة التالية ، والغناء بها من اكثر ما سمعت إثارةً للحماسة والانفعال :

قُمْ ، يا خويَنا !
شدّ الركايب والخبر جانا
قم ، يا خوينا !
موزر يددّبنا
ضربو عطابِ يومَ الكواني (١
موزر يدّبنا !
واليا رمينا
شبّ طويل وعاطلو غالي
واليا رمينا ! الخ . . .

وددت لو اكون موسيقياً لأضبط هذه الالحان كتابةً ، إذنْ لكان لهذا البحث قيمة اكملَ وفائدة اتمّ . ولكن ما لي والتمنّي ما دامت محاسن شعرنا الجبلي كثيرة اجتهد في تبيانها فيما يلي ، ما دمت لا استطيع ايصال موسيقى هذا الشعر الى اذني القارئ . ولكن لنبيّن قبل ذلك ما هي الآثار الشعريّة التي بين يدينا والى ايّ عهدٍ يرقى اقدمها .

المجموعات الشعرية

إن اقدم ما وصل الينا من الشعر الجبلي يرقى الى اوائل القرن التاسع عشر . وهذا لا يعني ان اهل الجبل لم يقولوا شعرًا قبل هذا التاريخ . ولكن طريقة توارث هذا الشعر ، وقلّة من يعرفون الكتابة في بلادنا هذه قبل ذلك العهد غمرت ما تقدّم القرن الماضي من الشعر بالنسيان ، فلم نعد نعرف عنه شيئاً واضحاً اكيدًا . لذلك كان اقدم الشعر الجبلي المعروف اليوم هو شعر اسعد نصّار ،

---

١) الكواني : جمع كون وهو المركة

والشيخ ابي علي الحنّاوي . وهذان الشاعران شهدا فتوحات ابراهيم باشا المصري. واسعد نصّار اقدمها تاريخاً وله قصائد قويّة يردّ بها على شيوخ القبائل المعادية للدروز ، الى جانب الغزل الرقيق ، الـذي سيأتي ذكره في محلّه . اما ابو علي الحنّاوي فله قصيدة رائعة يصف بها حرب اللّجاه التي دارت بين جيش ابراهيم باشا المصري والدروز . وهذا الشاعر لم يمنعه من قول الشعر كونهُ رجلَ دين ، فقد اجاد في ملحمته هذه كلَّ الإجادة . اما شعر هذين فقد وصل الينا في « دفاتر » خطّية محفوظة لدى آلهم حتى ايّامنا هذه ، وقد اثبت بعضها عبدالله النجار ، مـدير معارف جبل الدروز الاسبق ، في كتابه : « بنو معروف » الذي نُشر قبيل ثورة الـ ١٩٢٥ .

وجاء بعدهما شبلي بك الاطرش ، واحمـد البحصاص ، وعبدالله كمال ، واسماعيل العبدالله ، وهزاع الحلبي ، ومنصور عزام ، وهزاع شرف ، ومحمد الخطيب ، وقد عاشوا في النصف الاخير من القرن المـاضي وفي اوائل القرن الحالي . وقد وصل الينا شعرهم في « دفاتر » مخطوطة ايضاً . غير ان شعر شبلي بك الاطرش قد جُمع وطُبع في ديوان عنوانه: « ديوان شاعر الجبل في الشروقي والزجل » وذلك في سنة ١٩٣٦ ، بعناية الشاب يوسف محمد ابو راس.

كذلك طُبع سنة ١٩٣٨ ديوان منصور عزام ــ الذي عاصر شبلي ومات من سنتين او ثلاث ــ بعنوان : « نثر الحَزام في ديوان منصور عزام » بعناية ولديه السيّدين فريد ويوسف .

كما طُبع قسمٌ من شعر علي عبيد في مجموعة عنوانها : « ربابة الثورة » ظهرت سنة الـ ١٩٤١ ، وهي تحتوي ، مع شعره ، على شعر بعض رفاقه . وذلك بعناية ولده الشاب السيد سلامة عبيد . وعلي عبيد هذا من الشعراء الاحياء . وقد علمت ان هناك من يهتم اليوم بجمع شعر اسماعيل العبدالله ، معاصر شبلي ، تمهيداً لطبعه في ديوان . وهذا ــ إن صحّ ــ سيكون له شأنٌ يُذكر بالنظر الى تفوّق اسماعيل المذكور وعمقه الذي لا يدانيه احد ، وإن فاقه الكثيرون وخاصة شبلي الاطرش من حيث الجزالة ، وطول النفس ، والسهولة والطبعيّة .

اما الشعراء الاحياء الباقون فلم يُطبع شعرُ احدٍ منهم في ديوان ، ولعلّهم يفكّرون في ذلك . وانك لتجد مخطوطات شعريّة كثيرة عند ابناء الجبل . فكلّهم يتذوّق الشعر ويعتني بحفظه . وكلّهم يروي آلاف الابيات منه يتمثّل بها ويطيّب بها احاديثه عند الحاجة .

القسم الثاني : صفات اقدم ما وصل الينا من الشعر الجبلي

اما اقدم الشعراء عندنا ، واخصّ بالذكر منهم اسعد نصّار ، والشيخ ابا علي الحنّاوي ، فكانوا لا يزالون يجهلون مذلّة النفي والانكسار . ولذلك كانوا في شعرهم يفتخرون او يهدّدون او يصفون . ولكنهم لا يشكون ولا يبكون . يفتخرون بالشجاعة ، والإيمان بالله الواحد ، وعلوّ الهمم ، والعفّة ، وكافّة مظاهر الرجولة . كما يفتخرون بذكر المعارك التي ابلوا فيها البلاء الحسن ، وعدد الجنود الذين قتلوهم ، والخيول التي ربحوها ، الى ما هنالك من صفات يراها الرّجل سامية لمجرّد دلالتها على القوّة والتفوّق والترفّع . من ذلك ما قاله ابو علي الحنّاوي بصدد الحرب بين الدروز والجيش المصري :

اوّل فتوح الحرب ، ذبح البصيلي ،	أخذنا خمسية حصان ، فرد نمار
وكم بطلٍ منّا خلاوي إذا لكد(١	على الجمع يدعي للجيوش دمّار
يفعل بهم ما يفعل الذيب بالغنم	بضرب اليماني الصّارم البتّار
وشبابنا بارودهم ، في كفوفهم ،	زلازل ؛ وفي المتراس هجمة نار
وكم طبّجي(٢ خلّوه مدحي على العجل ،	وخلّو الآيات الملوك دثار
افخر نسب في الارض تلقى نسبنا	متجنّبين العار والمعيار
ترى جدّنا «النعمان» خلفة سا لحم ،	ومنّا حماة الدين والأنصار

. . .

من بعد ذا ، ابراهيم جرّدْ علينا	ـ يبغى الحرايب ـ عسكرًا جرار
دخل اللجاه ، زحفًا بجيش عرمرم ،	ونحنا قلايل ، والعدوّ كثار
نعتحنّاه ، نتناخى ، بقوّة بأسنا ،	وصارت معاركْ ، والفرنجي ثارْ
صحنا كما تصدر سباعٍ كوايرْ	على القومْ بالبلطاتْ والبتّارْ

---

١) لكد : هجم .
٢) طبّجي : مدفعي .

ذبحنا الوزيرْ وكل ضبَّاط عسكرو ، وثِلثَين جيشو راح قصفَ عمار
اخذنا المدافع والجباخان والزخر ، والذبح لا يُحصى له مقدار
فهذي قلعتنا ، وهذي لجاتنا ، وتربة عدانا ، من دخلها حار
ستّين الف اللي انذبح من عساكرو ، ووافق ، وصالَحنا ، وفات الثار !

والقصيدة طويلة جدًّا لا مجال لايرادها كلها في بحثنا هذا .

ومن ذلك ما قاله اسعد نصّار يفتخر على الشيخ افندي التيَّار زعيم قبيلة « وِلدْ عَلِي » ويتهدّده :

حنَّا ، بني معروف ، نحمي الجارْ لو جارْ ، تقنى المزنّـد فتيلكْ مانداريه(١)
وسيوفنا الحدب تفري كل زنّار ، ونْحرَابنا لو صَدّت بالدم نجليه
ما تذكر يوم ‌ردك والذي صار ويوم الجنينه ، يا فندي انت ناسيه !

وقد يبدو غريباً لأوّل وهلة أن نقول إن هـذا الشاعر اسعد نصّار كان شديد الحبّ عنيفه ، مع شجاعته الفائقة ، وروح البطولة التي فيه . ولكنّ هذا ليس غريباً البتّة إذا نحن علمنا أنّ الحب والشجاعة ما هما إلا مظهران للبطولة ، مظهران للكرم السامي الذي يدفع صاحبه الى بذل روحه في الحرب ، وبذل قلبه في الحبّ . ولنا في تاريخ آداب الامم امثلة كثيرة على ذلك . قال اسعد نصّار متغزّلًا ، وكان قد نزح من راشيّا الى جبل حوران ، تاركاً فيها حبيبةً له حال بينه وبين رؤياها ، كما توهّم ، جبل الشيخ :

فوق الجبل ، يا ريح ، سافر بالعَجَلْ ، قرِّبْ عليكْ بعيد خطوات المجال
نجمي غطس في برج عالي واختفى ، وطلّ ونفذ من خلف ظهرك ، يا جبل
نجمي غطس في برجٍ عالي واختفى ضب الظلام الاسودْ حين اتّو لنا ،
يا هالجبل ، اشفق عليّ من الجفا ، بس حيّدْلك اشاره عالشمال !
بس حيّدْلك اشاره لاتشمو ، اللي حياة الروح مودوعا معو
بحياة من كوّن ترابك وأرْفعوا ، يا هل‌جبل ، لا تريد نيراني شمال !
يا هل‌جبل ، لا تريد نيراني لهاب ، قادر الله ينفتح لي فيك باب ،
لدعي عليك بالريح مع كثر السحاب حتى خلال المرج منّكْ تنسل
حتى خلال المرج منّكْ تنتلي ، الله يسلّط لكْ رياح وزلزلي
يا هل‌الجبل ، عالبحر ريتك تنتقي حتى يقولوا : كان بالماضي جبل !

---

(١) المزنّد اسم البندقية تطلق بقدح الزناد . والفتيل اسم بندقية تطلق باشعال الفتيل .

وتزيد عاطفته عنفاً فيخاطب الجبل قائلاً :

يا جبل هالشّيخ ، عالي ما أرفعك ! الله يسلّط لك زواعق تقلعك

هكذا كان شعرنا القديم جدًّا ، وهو من اوائل القرن التاسع عشر ، كلّه صفاء ، وصدق عاطفة ، وسهولة تعبير ، وطبعيّة تشيع فيه روح السمو في العاطفة والترفّع في الاخلاق ، ويهيمن عليه جو من العفاف وصفاء الذهن سوف نراه يقوى ويتّسع في عهد شبلي بك الاطرش ومعاصريه ، مع اجواء اخرى قاتمة سنجتهد الآن في تبيانها .

القسم الثالث : شعر العهد العثماني

كان لانتصارات الدروز المتعدّدة على جيش ابراهيم باشا المصري اثرٌ بعيد جعل للجبل الجديد ذكرًا ، وادخله في عداد المناطق التي تهتمّ بها السلطات العليا — الباب العالي إذ ذاك — فصارت توجّه اليه الحملات العسكرية قصد اخضاعه ، فيقاومها وينتصر عليها حيناً ، فيجمع من فلولها الاسلحة الجديدة والأعتدة الوافرة . ثم تعيد الكرَّة عليه فتخضعه وتنتقم من قادة العصيان فيه بالقتل والسجن والنفي وبانواعٍ من العذاب لا تحصى : من الضرب الشديد ، والكيّ بالحدائد المحميّة ، وما الى ذلك من ضروب التعذيب . فكانت بين الدروز والاتراك سلسلة من الحروب يقع في كلٍّ منها جملة معارك يقوم فيها الدروز ، وهم لا يتجاوز عدّ محاربيهم الالف إذ ذاك ، بضروب من البطولة والتفوّق لا ينكرها اعداؤهم انفسهم . وكانت الدولة العثمانية تكثر من نفي رجالهم الى اقطار السلطنة النائية : الى طرابلس الغرب ، وكريت ، ورودس ، والروملّي ، وسواها .

فتقوم بين المنفيّين وذويهم في الجبل خطوط متّصلة من المراسلات يضمّنونها كل ما في قلوبهم من نقمة او حرقة ، او يأس ، او رجاء ، او حنين ؛ او دعوة الى الانتقاض ، او تحذير من غدر الاتراك . وكانت هذه المراسلات شعرية على الغالب ؛ فكان لنا اجمل الشعر واصدقه واعمقه . وكان لنا شعراء كثيرون اشهرهم شبلي بك الاطرش ، واسماعيل العبدالله ، وهما من الدرجة الاولى . ثم محمد

الجرمقاني ، وهزاع الحلبي ، وحمد الخطيب ، وسواهم من المقلدين. ولا يسعنا إلّا الاتيان ببعض الملاحظات العامّة الشاملة لهذا النوع من الشعر باجمعه.

هو رسائل شعريّة : إذن يجب على الشاعر أن ينتخب له رسولًا شجاعاً عالمًا باخلاق اهل البلاد التي يجتازها ، جَلُودًا على السفر في الليالي ، وان تُعَدَّ له مطيّة تتجلّى باجمل الصفات كالسرعة ، وقوّة الاستمرار ، والصبر على التعب والعطش والجوع والحرّ والبرد ، وعليها عدَّة تامّة من رحلها وخرجها وما يحتاج اليه الرسول من الزاد. وبعد ان يصف الشاعر كل هذا ، ويدلّ رسوله على الدرب ، ويوصله الى المكان المقصود ، يقول للمرسل اليهم مـا يريد ان يقوله بسرعة وايجاز ، او بتطويل حسب الغرض المقصود. على ان اعداد الرسول وتسفيره قد يتجاوز في اتساعه القسم الآخر من القصيدة. وينهي الشاعر القصيدة بالصلاة على النبي ، او بالتماس شيء من الله . وقد تكون المطيّة ذلولًا او فرساً او سفينة او الريح مثلًا ، وقد لا يكتفي الشاعر بمطيّة واحدة بل « يشدّ » عدّة مطايا او « ركاب » كما يقول : يصف كل واحدة منها اين تقيظ ، واين تربع ، ومن اين اصلها ، وما هو لباسها . وهكذا كان لنا قصيدة العشر ركاب لشبلي بك الاطرش ، وقصيدة العشر ركاب لاسماعيل العبدالله وسواهما . على ان هذين الشاعرين هما السابقان وخاصّة شبلي. وبقية الشعراء ما جاوزوا في « شدّ الركاب » إلا ببعض صفات هذين الشاعرين مقلّدين مقتبسين ، واحياناً سارقين .

شبلي الاطرش واسماعيل العبدالله :

ولا يخلو من فائدة ايراد مثالين على « شدّ الركاب » احدهما لشبلي بك الاطرش ، والثاني لاسماعيل العبدالله . قال شبلي بك بقصيدته المعروفة « بالعشر ركاب » :

فاض النرامي ، يوم شنتو بمنامي ، والدمع عامي ، والشطا في عظامي ،
من كثر ما بي ، يا ربع ، واعذابي ! وضّح شهابي بالمفارق وحامي .
من عقب ذا ، شدّيت عشرة سراحيب اليامشوا ذرعانهم كالدواليب ،
اسرع من اللّي يقطعوا الدوّ تعذيب من غير طولـه مثل رف الحامي .
– الأوّلة من خاص ركب اللحاوي ، وشدادها ما كلّفونا كل غاوي ،

تامن عليها ، لو مشت بالحلاوي ، بس انت جوّد حبلها والزمامي .

– والثانيه خزّيتها من التياهـا ، يا ذكرت الله يوم غاروا تواها ،

اسرع من الدولاب مدّت خطاها ، من خلقته مـا وقّفت للسـامي .

وهذا الى ان يصف الرابعة فيقول عن سرعتها :

اليامشت غدوه من أرض المدينه تلفي دمشق الشام ، قبل الظلامي

الى ان يصف العشر ركاب ويلبسها من اشدّة القصيم والخِراج والاسلحة مع الزاد للمسافرين ، ويوصيهم بما يلي :

يأهل الركاب ، زكابكم ولّنوم ، فوق الركاب رواحكم ودعوم ،

اما الديار اللّي تبو تـهجوم ، يهم تراك ، وبعد يهم روامي ،

من أزمير مدّوا طالبين المراويح ، اوّل نهار خذوا عليهن مشاويح ،

اليا زرفلوا مثل النعام المدايح ، سيحدوح في بحر الظلامات عامي .

في وقم عشره انقرا الترك تلفون ، اصحا تنولوا ركابنا اليوم تلفُون ،

يا ربنا ، في لناهم ، ما تعرفون ، والضيف مالو تي وطنهم كرامي .

عا أدَنا من عقب تسعه لَنِنّي ، ومن القَنِل صاروا صراصيع جِنّي ،

يا أهل الركاب ، تولّسوا الشرق عنّي ، خُـذوا يمـين توقّموا للملامي .

عادياربكر وماردين بقفاهـا ، عا حلب الشّهبا وهلّي وراها ،

حماه وحمص اصحوا تباتوا حَدّاها ، عا جلّق الفيحاء تلقُوا السّلامي .

يا هيه ، يا لّلي فوق عشرة ركايب ، تتهقرُولي فوق عالي النجايب ،

الدرب عا نجها وهَكْ الشطايب ، على الجميدي ، على يار الحامي .

هونيك تلقوا ديرة العزّ ، يا طروش ، علمي بهم صلفين في ساعة الهوش ،

كرام اللحى ، ذبّاحة الحِيلْ وكبوش ، بعُوجْ المناسف فوقها السّمن عامي .

يأهل الركاب ، ركابكم ربّضوهن ، بوَجْه المقاعِدْ ركابكن نوّخوهن ،

فضّوا الكتاب الباعثوا سلّموهن ، هم يفهموا مضمون فحوى كلامي .

الكل منّاً بليس غيّب سَعَدْنـا لَامّا اندهكنا يا لرّبع وِأنسَـدنا !

حِنّا الذي جوّا البحوره انبعدنا ، يا جْواد ما ودها شماتي وملامي .

. . .

البعض مِنّاً يالرّبع عسكريّه ، والبعض في رودس بحاله زريّه .

والبعض مثل حوالنا هالرّديّه ، واتو تحكمكُم بعد قطمة نظّامي !

وهكذا الى ان ينهي القصيدة بقوله :

صلّوا على المختار سيد المخاليق ، يشفع لنا يوم ازدحام الخلايق ،
وبساعة ينشف بها الجم والريق ، ساعة حشر يوم تقوم القيامي .

ولنعرض الآن قصيدة اسماعيل العبدالله المنظومة على هذا النمط للمقابلة واستزادة المعلومات عن هذا النوع من الشعر الترسّلي ؛ مع العلم ان شبلي اشتهر في الشعر ابتداء من سنة ممدوح باشا ، اى سنة ١٣١٤ هجرية (١٨٩٦ م.) ، وتوفي سنة ١٩٠٤ ميلادية ، بينا اشتهر اسماعيل بالشعر سنة سامي باشا الفاروقي ١٩١١-١٩١٢ م. وتوفي بعد ذلك . فالأسبقية إذن لشبلي .

قال اسماعيل :

من كثر همّي ، يردف الموج يمّي ، اشرب بسمّي ، وأنصف الدمع دمّي ،
جرحي مزمّي بالمماليق دمّي ، والشيب عمّي مفرق النحر والراس .
من عقب ذا شدّيت عشره عرايد ، حيلًا يزعّن الحديد المباليد ،
ان دوبن وأقفين حقيقًا عراقيد ممشى ثمان ايام للهجن رواس .
ـ الأوله ما دنّيت للسماليق حمره ذعاره من طوال الساحيق ،
مثل الشرود ان جفّلوه الدفافيق عيّت تواطق هاديَ المضل ووناس .
رباعها منَ أقصى النواصف الياشان ، والقيظ من بصرى لياغيل بوسان ،
ما لاغه بديرة النور ذبّان مشحاه حوران العذا روس الطماس .

وهكذا لكل ذلول اربعة ابيات من الشعر حتى يشدّ العشرة ركايب ، واذا به طوّف بلاد العرب وذكر مراعيها ومياهها وواحاتها المشهورة مما دفع الأمير عبدالله ، امير شرق الاردن — على ما سمعت — ان يقول لدى اطلاعه على هذه القصيدة : « إن هذا الشاعر يعرف عن بلاد العرب اكثر من ايّ بدويّ » وبعد ان يهيء للراكبين سلاحهم وزادهم ويطمئنهم الى ان السفر لن يكون طويلًا بقوله :

ما من بعيذ ، الدرب مسرًى ومصباح

لانه كان مسجونًا في دمشق — ويقول :

مدّوا من الفيحا اذان النيابي ترشّدوا ، واخذوا معاني كتابي ،
اين « براق » ادعوا يسوم الركابي من دون « شقًا » لا تملّون بنعاس .
اقصى معنّاكم لعرمان وشان ، ماني مخصّهم شبابًا وشيبان ،
علّي جم يتعابك الكون عيّان إن كان ما راس البنا هدّم الساس.

ثم يخاطب الدروز قائلاً :

يا دروز ، كار جدودكم كان تبنوه بالسيف الحق المثولث يصنوه ،
واللي مدوّر غرّة الربع ، خلّوه لا بد ما يعقب من النلب بنكاس .
واللي مدور يا لربع « كان ما كان » عوايد الدنيا فوايد وخسران ،
لو كل واحد منكمو صار سلطان ، ما هي شريفه ، والرفاقه بمجاس !
كبّ الرّفق لا صار بدّو جاله ، واللي بضيفه ما تبيّن فعاله ،
اللّبوة الّلي ما تدرّي شباله ما ظنّتي تدرك عشاها من باس .

. . .

وشيوخنا ناموا على موقد النار ، مثل الارامل يندبوا دمنة الدار ،
ما منهم اللي خاف من مهرّج الدار ، وسعودنا في لجة البحر طمّاس .
يا الله تفرجها علينا شلي حال بجاه النبي من ديرة الظلم نحتال ،
تفتح لنا باباً على الطول مقفال وتنفك عنّا لرتب المكس ونخاس .
واختم كلامي بالصلا والسلامي عالمصطفى المختار نور الظلامي ،
يا الله ، يا معبود ، تحسن ختامي ، واطلب شفاعه من وساويس خنّاس !

وهكذا تتوالى القصائد على طريقة واحدة وتختتم كل واحدة منها كما تختتم الأخرى . غير ان اسماعيل العبدالله كان معاصراً لشبلي في آخر ايامه لا في اولها . فيكون شبلي اسبق الى ابتكار طريقة « الركاب » ، وإن يكن اسماعيل العبدالله يساويه بجمال النظم وقد يفوقه متانةً وعمقاً وموسيقى ، ولكنه يقصر عنه سهولةً وخصباً وتفاؤلاً . فشبلي الاطرش متفائل في اكثر شعره . اما اسماعيل العبدالله فمتشائم دائماً . ولعل هذا التشاؤم هو الذي منح شعره صفة العمق التي يمتاز بها من شعر سائر اهل الجبل . فشبلي ، اذا تألم ، نسب كل ما يصيبه الى الاتراك . ولما كان يعتقد ان الاتراك من طبعهم الخيانة اصبح يحذر منهم ولا يستغرب عملهم . اما اسماعيل ، وإن يكن سجين الاتراك ، فلا يعزو همومه ومصائبه إلّا الى قلّة الاصحاب وعدم اعتناء اهل الجبل بخلاصه من سجنه . وهو مولود ليشقى ويتعذب ويبخلون عليه بالموت حتى بثمن :

من مبتدا عمري حياتي رديّه والموت عيّوا ، لا يبيموه بثمان

وانت ، وان سمعت شبلي يشكو ، فلا تشعر بقوّة الالم . انما تشعر بشموله ودوامه . اما قوّة الالم فتشعر بها عندما تقرأ شعر اسماعيل العبدالله ، فهو يجلب لك

اليأس ، ويصل توًا الى قرارة نفسك حتى ترثي له وتحنو عليه . ولكنك لا تشعر انّ شبلي بحاجة الى رثائك وحنوّك فهو اقوى من هذا . ولعل مكانته كزعيم للجبل كانت تمنحه الغلبة على الضعف والتفوّق على كل الآلام . فبينا ترى اسماعيل العبدالله يقول :

أنا علّتي عيَّت على الطبّ والدَّوا ، ابى ان يعالجها جميع طبيب
فلا الحِلّ يفرجها ، ولا حاوِي العرب ، إلا بْروحي ما هنيت تطيب
امضّي نهاري غايب العقل ، طايش ، وأنْ نمت ، نومي مثل نوم صويب
ولا من يواسيني ، ولا لي جلاده ، امضّي الليالي بالفكاز هذيب
ميلًا يخلّاني ، وميلًا ولايفي ودِيني حرمني كل شوق حبيب
مسجون في رقّ المهاني بذلّه ، مربوط محكون الحبال قضيب
البين عاندني ، وكسَّر جوانحي ، ولالي يرجو السّالمين نصيب
اللّي جزوا البحرين ، واللّي بأسرنا وديارنا صارت مقام نحيب

. . .

انهم ، ترى لرجل سعدًا وساعده ، من قبل. يرضع بالدّيود حليب
إن طاب سعدك ما يكيدك عدوّك ، تصايب غضّي والسنوع نصيب
ما عمر قالوا السهو يجلب بَلاوي ، ولا فاد منع اللايذات رقيب

أو ، في قصيدة ثانية :

عنًا لمَاني مزع القلب حَرَّه ، حَرّ الملاق برايب السمْ حَرَّه
باب الرّجا اللي قديمًا يَحرَّه سكَّر ، وفتّحلي من الياس بيبان
يا ناس كيف الراي شيرو عليّ ضاقت بوجهي ، يا جواد الغضيّه
من مبتدا عمري حياتي رديّه ، والموت عيّوا لا يبيعوه بثمان

. . .

مبلّة[١] رماني بالمخاطر مطروح ، مهتوك ستري ، لو تواريت ، مفضوح
والله نبني طلق ألإيدين لاروح ، لكن يجوّدني عن الدّوج سجّان
واليد كمّصت ما وارتني بنَاعه ، من دون خالق الله ، حرمت الشّفاعه
والروح ما خنّص يشركها نزاعه ، أشركتْ كانْ يردّني السّأس يقان
واليوم ، في هالدّور هذا ، حسابي من خلقتي يجمع مصابي كتابي
ما هنوفي كثير يُعذّب عذابي من مبتدا الدنيا وما بعد وِذْ الآنَ
إن جيت أعدّ هموم قلبي وحسرات مصايبًا خابع عددها مثالات
الدّار سايت ، والمواريث عورات ، وانا هكيمًا راجيًا مَنّ وحساب !

---

١) الدهر

إذا بنا نرى شبلي يصف حزنه بشيء من السخاء والقوة، وإن كان حزنه لا يقلّ عن حزن اسماعيل :

قال شبلي، وقد نُعي اليه اولاد خاله، من قصيدة طويلة مؤلفة من مئة وعشرة ابيات :

وهمّي جبال الشام تعجز تشيله ! أيا قلب ، من مرّ الفراق ارتاح
ايا قلب ، من مرّ الزمان الذي عدا علينا شراب من الصديد قداح
الله يخون الدهر ما أردى سوالفه ! يسقيك من عقب الزلال محاح
يسقيك كاس الهم والنم والقسا مَن آمن الايّام لا يرتاح

. . .

ولا ظنّتي من نسل حوّا وآدم فيها رجل صاحب شيَم مرتاح
ما غير ودّع واترك الهم، واتمظ واللي ترك كل الامور ارتاح

أرأيت كيف عزّى نفسه بعد هذا الحزن والهم والحرقة ؟ أرأيت كيف يزيد الّا يكترث الجميع هذا بعد ان وصف آلامه وحزنه بما يزيد على المئة بيت ؟ وهو قد اعتنى بشدّ عدّة ركاب باول القصيدة واعدّ لها كل ما يلزم من متممات السفر — أليس هذا فعل الملوك إذ يهتمون بترتيب حفلات الدفن الرائعة عندما يفقدون واحداً من ذويهم مهما بلغت درجة حزنهم ؟

واسمعه يتذكّر :

كنّا بحوران الذيّه بلادنا ، هذولاك ايامي وذول ايّام ؟
هذولاك أيّام السعاده مع اهـ وهذوي ليالي متشـات اقتام
نصبر ، وعند الله تدابير حالنا الجرح مع طول الصبر يلتام
ترى الصبر عند الضيق انفع من الدوا وعند القضا كل الهموم احلام !

واسمعه يحنّ الى بلاده .

رجواي اشوف صفيخ وشيخ وقصيص،(١ رحوى اليهودي ، وغير بمدين باني

. . .

يا الله ، بجاه النبي هود وادريس . يا حيّ ، يا معبود ، تسمع اصواتي
تفكّنا من محضر السوء وأبليس . من قوم ما تفهم كلامي ولغاتي
يا طالبي ، يا غالب الكل، يا جيس ، يا محييّ ألعظم الرميم الرفاتي

---

١) تلال في جبل الدروز .

تظهر سعدنا ، بعد ما أخنا مطاميس ، . في بحر قوم عهودهم خايناني
من بأمن الثبان ، وايا النواويس ، ياكل كفوفه من الندم والشاتي
من بعدها ، يا ثور ، يا حمار ، يا تيس ، تأمن عهود الخاينين البناقر
لو صار من قبل ما خلق لوط والعيس ، يقولوا الاتراك عهودهم خاياني
دولة تخوّن شماملين التلابيس ، ولا دين بنهيم عن الفاحشاتي
باعوا الثغر للروم باربع نواحيس ، دكو قلاع المانه التاياتي
مثل الافاعي - ليّنين التلاميس ، والسم بأنيابهم كاوياتي
حلوين في صف الحكي والتلابيس ، مثل السّراب اليا رآه الظماني
يا رب ، لا تجمل حياتي تناغيص ، من بعد دك حصوننا الطايلات
يا الله ، نطلبك الفرج والمخاليص ، بجاه النبي اللي شرّف الكاينات

ثم تراه ، بعد ان يحنّ الى داره ويصف مصابها وماضيها العظيم بقصيدة رائعة ، لا يقطع الرجاء من العودة اليها بل يصيح عن لسان الدار :

ردّت عليّ الدار ، تبكي من النيا ، وتقول هذا البعد مانيش رايده
والله ما كان الفراق بخاطري اما الدهر خوّان ، هذي عزايده !
وان خبّروني بالمخاليق كلّها ، ما نيش عن حب المحبّين حايده
واللي رجوت اليوم ارجوه باكر واذا جرى لا بدّ تجري موارده
وبغطى بشوف الغايبين من اهلنا ، ونشخّص النربه مثل فصل عايده
واختم كلامي بالصلاة على النبي المصطفى حجّت اليه النجايده .

ومها بلغ حزنه واله في الأسر لا يصل اليه خبرٌ يسرّه من الجبل حتى يصرخ والفرح ملء قلبه :

قلبي على فقد المحبّين ولهان ، واحرّ كبدي من العلوم التوالي !
وهمي سمك من يوم فارقت حوران ، وعيني بديران الرفاقه الموالي

• • •

وانا تحرّى العلم ، والقلب حزنان ، وارجى الفرج من ربّ خلّاق عالي
جانا خبر من يمّ صلخد وعرمان ، نسمين يا وجوه الذباب المثالي !
عبدو افندي شارب الخمر سكران ، جاهم يجادر مثل فحل الجمالي ،
يطلب سباع البرّ بنّا ودخّان ، ويريدهم مثل النجر للحوالي
جوه النشاما ، وبعد لليوم ما بان ، هدّوا عليه قصور شمخ عوالي
وللحين تحت الرّدم من غير دفّان ، مع مشرف آغا لا جهنم يوالي !

• • •

صاحوا عليهم ، وانطرب كل سكران ، واقفوا مثل غيم تحدّاه الشمالي

الغين من حمر الطرابيش سنمان ، « بيبون » ذبحوا من النروم اليالي
ضبع الكويرس عازمو ضبع حبران ، وصار اللحم « بيبون » مثل التلالي

. . .

من فمل ربع ينطحوا الضدّ بطمان ، صلفين يوم الحرب ، يوم التتالي
بيلاد سوريا بلا شك فرسان ، من غيرهم اباك ان تحمد رجالي !

. . .

وقد اجاد شعراؤنا بتشبيه هذه المطيّة السريعة فشبّهوها بطير النعام ، وشبّهوها بالريح وشبّهها شبلي بالقطاة قائلاً :

تشبه قطاةً حاملي الماء باتّسها تبنى فروخاً بـالحماد صفار !

وقد استوفوا جميع صفاتها الحسنة من تراصّ اللحم وجمال الخطى ، وقوّة الاحتمال . ولكن شبلي يمتاز من الجميع بهذا الحنين الى داره وبلاده ، هذا الحنين الشائع في شعره يكسبه رونقاً وطلاوةً ويمنحهُ قوّة الانتشار والذيوع حتى اصبح شعره يُنشد — في كل ليلة — في كل قرية من قرى الجبـل . واصبح بين شعراء الجبل كالمتنبيّ بين شعراء العرب ، وغرّ العدوان بين شعراء البلقاء . فحكمه وامثاله على كل لسان وفي كل مناسبة ؛ لأنّه لم يترك موضوعاً يهمّ النفس الشعبيّة إلّا طرقه واجاد في كل المواضيع .

وله قصيدة سينيّة — وان تكن بعض قوافيها صادية — تُدعى «الألفيّة» في لغة الشعب عندنا : لانها تبتدئ بالألف وتنتهي بالياء . وعلى كل حرف ينظم الشاعر بيتين او اكثر كلّ منها يبتدئ غالباً بالحرف الهجائي نفسه . وقد لخّص المذهب الاخلاقي الجبلي بهذه القصيدة . لذلك رأينا ان نوردها كلّها لمعرفة هذا المذهب ، وقدره حق قدره . فهو ولا شك سامٍ قد يغيّر رأي من يجهل اهـل الجبل فيهم ويطلع الناس على ما عندهم من المحافظة على اسمى اخلاق العرب واكثرها عملاً على شهرتهم وعلوّ مكانتهم :

الألف : النّت الماني لطالبه : من خاض بحراً بالمخاض وغيص
يا سامعين القول ، اصنوا لقصتي وشوفوا معانيها مع التشخيص :
البآ : بُرّك لا تبطّل لبذله ، واضب لبنك دوم بالتحميس ،
درب البخل يا صاح عارٌ على الفتى من غير ما يقولوا فلان خسيس .
التآ : لا تأمن على المال خاين ، لو تحلفوا ، عندو اليمين رخيص

رديّ الخصايل ما يغير طريقتو ، والطبع تحت الروح بالتخصيص .
الثآ : ثبّت لفظ فمك من الزلل ، واحذر من الترويد والتنيص ،
لا شك درب الكذب عارٌ على الفتى ، من خاس حكيو ، بالرجال بخيس .
الجيم : جارك لا تجافيه وتجحدو ، ولا يجحد الجيران غير ابليس ؛
وصّى النبي بالجار من دور آدم ، وحياً كلام النافعين نفيس .
الحآ : حبّي الضيف ، إن جاك زاير ، واضحك بوجهو ولا تكون عبيس ،
الاجواد مثل الرّوض يزهو على الندى ، والانذال صاّنة عل وييبس
الخآ : خلّي الناس تذكر خصايلك بالخير ما هو في كلام بخيس ،
عرض الفتى مثل القزاز ، إذا انشر ، فاحرص على عرضك من التدنيس .
الدال : داري الناس تأمن شرورهم ، خُذ ما أستطعت من الانام جليس
منهم اسد رئبال يرضيك بالعطا ، ومنهم حمار ، وبعد فيهم تيس
الذال : ذلّ النفس لله وحده يمحّص ذنوبك في غدٍ تمحيص
النفس مثل النار ، لو هبّها الهوا بتشمّل الاخضر مع اليبيس
الرآ : راح العمر ولّى مع الصبا ، وعيش الفتى عقب الشباب تعيس
يا حلو ايّام الصبا ، يا رفاقتي ، فيها غَرَنْدات البكار تميس .
الزّاي : زوّدها من الخير ، واجتنب ، واحرص على نفسك من التلبيس
ولو تثير عليك بالخير ، يا فتى ، فالهمّ متلبّس بها تلبيس .
السين : سيفك لا يفارق وسادتك ، خلّيك فرز من الرجال حريص
ترى عدوّك ما يخلّي عداوتو ، بالليل يسري ، وبالنهار ينيس .
الشين : اهل الشور تعمر بلادهم ، ويخرِبْ بلاد الماري النخيص
حنّا الذي من يوم كثرت شوارنا ، رحنا قطايع ، والمليح حبيس
الصّاد : صون السرّ عن سائر الملا ، وخلّي مخاضك عالرجال وغيص
لا تآمن الغدّار بالناس تندم مثل الحصيني دايمًا بلّيص .
الضاد : ضليلين العقول المُماره عمرك بعشرتهم يروح تعيص
ما يعرفون الطوط اصلُه ، من البصل ولا يعرفوا الجمه من الخميس .
الطآ : طُبّ الجسم في قلّة الأكل ، وطُبّ النفوس الحفظ والتدريس ،
والله يحصي للخلايق اعمالهم ، وما أظنّ ميزان الحساب بخيس .
الظا : لا تظام ترى الله يظلمك ، وبعد الصّعود يحدّرك تنكيس
خيار الفتى جزّام عزّام عالصّبى ، غفّار زلّات الصديق ، انيس .
العين : عادات الكرام النّفايل يعطوا الكحيله ، والمهر ، والسّيس ،
امّا رديّ الحال يظهر عينه لو خيّطولو فروتو بعصيص .
والغين : غربتنا برودس وغيرها ، وباكريت جوّات البحور تعيص .
عسى الله يفرجها ، ونرجع جميعنا ، ولّا درب عا ربّ العباد وغيص !

التا : فيهم مثل «أجودّ» بالعطا ، وان شاف طالب حلّ باب الكيس ،
وفيهم سرابًا بزيزنًا سهداني شاطر بكثر الحكي والتسليس .
القاف : قلنا الصّبر يشفي من الملل ، صبرنا كما تصبر سوادي العيس ،
نرجا بأن الله يجمع شملنا وبردّنا عابلادنا تنكيس .
الكاف : كون بقسمة الله راضي ، رزقك من الدنيا كفن وقميص ،
لوان تملك الف مليون من الذهب ، لا بدّ تكن باللحود رميس .
اللام : لمّ الشمل ما بين الملا ، وخلّيك سيّد عالجميع رئيس ،
من يأمن الدنيا يذوق غبوغها ، يرى الصبح ظلمه بالسواد دِبيس .
الميم : من لا يتّقي الله يندم ، انظر الى يعقوب اخوه العيص ،
العيس جاب البدو دربو على الشّقا ويعقوب جاب اتنش سبط نفيس
النون : نار الوجد تكوي ضمايري من الشوق ، عذّاني لسع قريص ،
ان كنت انا يقظان ، اراعي خيالهم ، وان نمت ، اشوفهم بالمنام هديس .
الها : هداك الله ! خذلي رسالتي على ظهر سلطان الطيور خصيص
نسرٍ على شيل الرسايل مجرّب من عهد سيّدنا الامام ادريس .
الواو : ودّيها على ديرة اهلنا ، وصّي الجميع ، اصحا الكلام يخيس :
من يأمن الاتراك يصبح مثالنا : بالليل يذرع ، وبالنّهار ينيس !
اليا : يهودي من يآمن لتركي ، بلا شك الترك جنس نجيس !
صلّو على من شرّف الارض ذكره محمّد المختار ، واخزوا ابليس !»

واذا اراد الجبليّون ان ينشدوا الشعر في الحنين الى الوطن ، او في الفخر بالإنتصارات الماضية والتفوّق على جميع الخصوم ، فشعر شبلي امامهم يقدّم لهم ما يريدون في كلّ فنّ . ولعلّ ايرادنا بعض امثلة من حنينه الى داره يقوم برهانًا على صدق عاطفته ، وخلوّ سليقته من كل تكلّف . قال شبلي ، وهو في منفاه :

يا دار ، قلبي ، دايم الدوم يطريك ، وان نمت ، اشوفك بالمراجيس ، يا دار
يا دار ، ما ظنّيت عالعمر نخزيك ، لكن حكم الله عن الخلق عــار .
يا دار ، رحنا بالممالك نشاريك ، ما تندينا في تناويخ وشمار !
يا كبر همّي ، ان كان غيري مراعيك ، وحنا بحبس ازروم جوّات البحار
وانا تذكّر شوفتك ، لا جواريك ، اللي لمع خدودهن مثل الاقمار
يا حلو لمّات الرفاقا بعلاليك ، والبنّ يرهى ، والفناجين دوّار
يا دار ، كنت من القبايل تمدّيك ! ولاني بجال اللي على اخرب مسار
لبوا بك الشيّان ، واهل التحاريك ، لاما غديت للمخاليق معيار
يا دار ، كانوا ينحروكي المماليك ، وكنت مزار ، ودايم الدوم تزار

كم من امير وبك ياما احتمى بك ! من ديرة ابن سعود لبلاد سنجار
سطّام ابن شعلان جانا احتمى بيك يومن لفى من ذينة الخبس ، فرّار
من قبل «فيصل» «وابن دوخي» وذوليك، اهل الشمال اللي على الخيل شطّار
ما عمر طوط الروم خوّف اهاليك ، ولا يوم بتي في هواجيس وفكار
كَثْرِتْ شيوخكْ ، كانَ ربّك يجازيك ، سلّط عنيك الترك صلفين الاشوار
عنناك ، ولو ان النفل يسناليك ، من يوم شاخ البك ابو سيف جرّار !

وهنا نصل الى نقطة حسّاسة من شعر شبلي . فهو يكره حكم الزّعاع كرهاً شديداً . هو الذي شجّع الحركة الشعبية في الجبل ، فأثار الفلاحين يطالبون بتشتيت الملكية . ولكن هؤلاء لم يكادوا ينالون هذا المطلب حتى اصبحوا خطراً يهدّد بالفوضى وينذر بالقتل والتدمير . هم كالسّيل الجارف لا يعرف حدوداً ينتهي عندها . لذلك ندم شبلي على ما كان من امره وامرهم ، وراح يصفهم ، ويهجوهم بقصائد مريرة يذكر فيها تسابقهم الى السّيادة ، دون ان يكونوا اهلاً لها ، وتفشّي الجهل والعماية فيهم الى حدّ بعيد .

واشتهر شبلي بالغزل كاشتهاره في سائر مواضيع الشعر ، كيف لا وهو ربيب النعمة والترف ، رقيق الشعور ، مرهف الحسّ ، بعيد مذاهب البصر والفكر ، قويّ العاطفة ، كريمٌ ، شجاع . والكل يعرف ما لهذه الصفات من متين الصّلة بالحب ، ولا سيّما إذا اجتمعت في شاعرٍ يرى الدنيا من خلال شعره ، شاعر شامل الشاعريّة يهلهل الشعر كالكلام العادي حتى لقد قيل أنّه كان يُملي على عدّةِ كتّابٍ عدّةَ قصائد مختلفة ، في آنٍ واحد ، بمواضيع مختلفة .

ونحن نورد الآن مثالاً واحداً من غزله لتبيان طول باعه في هذا الباب ، مع ما كان عليه من الشجاعة والميل الى الحرب . ونرى في هذا المثال تنوّع الاوزان وتعدّد الألحان مما لا نجده في سائر شعره :

من الجبل للجرد ، للشّوفين ، لبلاد غزّة مصر ، الى عمّان
يا من خبر ، يا ناس ، قولوا لي مثلي ابتلى في حبّهم انسان
يا من خبر ، يا ناس ، قولوا لي ياأهل الهوى جيبوا عامزولي
من هجرهم نبتت مفعولي ،

كأنّي قريص الداب ، والروح بالترقا ،
لحمي وجسمي ذاب ، من لوعة الفرقا.
من الهمّ راسي شاب ، والقلب في حرقا
يا بو عيون هداب ، والدقّة ازرقا !
يا شين شوف الروح ملولي ، من هجركم ، يا قايد النزلان

من هجركم يا قايد العاني شوف كيف الروح ولهاني
خايف انك بس تسلاني
يا بو عيون ملاح ، وتطول غربتنا
ربك عل سماح ، هذي مصيبتنا !
محبوب قلبك ناح من عظم فرقتنا
يا حيف عقلي راح ! يا ريتنا متنا
من قبل هذا الحال ينشاني ، يرتاح قلب العاشق الولهان

يرتاح قلب العاشق المحروق يا زين ، يا حلو النبا والذوق
عزّي لمن في حبكم مشنوق
بين السما والارض ، والريح يلعب فيه
لو ان عليّ فرض كان الأمل تقضيه !
لكن اجت بالعرض ما حيلتي يا هيه !
حبك حرمني الغمض قلب الشقي يلفيه
انت ، يا محبوب ، يا مدقوق عالخدّ الابيض الاحمر الريّان

عالخدّ والزندين الك دقّاً شنتهم بالعين من حقّاً
يا حلو ما بتشتّلك شقّا
وتشوف حالي كيف مضنى بفرقتكم
ميتين الف ، يا حيف ! ما كبّر مصيبتكم !
حارم عليّ الكيف بايام غيبتكم
قلنا غدا بالصيف بلكي نلاقيكم
ونشوف ردعة خدّك الزرقا يا بدر بازل ، يا قمر نيسان

يا قمر يا بدر ، يا عالي غير شخصك ما انا بالي
ان خبّروني انت راسالي
من دون كل النيد ما لي وليف سواك
يا حلو ما بتفيد قلباً بلي جواك

يا اظرف من الصّيد بكثير ، ما احلاك !
ما قال عمر وزيد كان المثل ربّاك
ياما هفا هالدرب جـالي اين « الوشاحي » وين راح « سنان » !

ابن الوشاحي في هوام راح مجنون ليلى في البراري ساح
مشوقهم ما لو قلب مرتاح !
لكن نمى من قبل .عنهم جميع الناس
غير ان عقلي هبل حتى شربت الكاس
يا بو عيون الذّبل ومضـدّي بنماس
لا في الغرب والقبل ولا في المتن والراس
مثلك ربي من قبل غيد ملاح ولا من بعد بتخلّف النسوان

ولا من بعـد بتولـّد الـدايات ولا ببلاد الروم كرجيّات
بلكي عند رضوان حوريّات !
مثلك عـلى هالرفـق يا بو خصر مزول
ماحلا ياض العنق من فوق حلو الزّول !
عدّي صويب تفنق من هجركم مملول
محلا القتل والشنق ولا فراقك حول !
يا بو خدود ظراف ورديّات وخدود طَلع التين والرمّان

وخدود طَلع التين والتفاح ، مشوقهم قدّيش جاح وناح !
ياما هفي بالهجر ياما راح
من قبل ناس كثير مـاتوا بحسرتـهم !
من الهـم والتشحير كـبرت مصيبتهم
يشدا رفيف الطير قلبي بغيبتهـــــم
يا ناس ، ما التدبير تنشـوف طلعتهـم ؟
ونشاهده ، ونشرب مداه الراح .ونبوس قنّو خـاتم سليمان !

ونحن اذا تركنا شبلي واسماعيل العبدالله لنتكلّم عن الشعراء الذين عاصروا شبلي ، وكانت بينه وبينهم مراسلات شعرية فقلّدوه في الكثير من شعره ، وإن يكن هذا التقليد كان عفويًّا تنجرّ اليه سليقة هؤلاء الشعراء من تلقاء ذاتها تحت تأثير المؤثرات نفسها ، مستوحين الجوّ نفسه ، متحرّكين في الدائرة

نفسها — إذا نحن فعلنا ذلك وجدنا شعرهم يشبه شعره من وجوه عديدة : فهم بالنسبة أليه كاتباع المذهب الشعري الواحد . وإذا انت درست آثار زعيم المذهب او المدرسة ، فكانك أتيت على شعر رفاقه جميعاً .

ومن هؤلاء الشعراء نكتفي — بعد ان ذكرنا اسماعيل العبدالله — بذكر هزّاع عز الدين الحلبي ، وهزاع شرف ، ومحمد الجرمقاني ، وحمد الخطيب ، ومنصور عزّام. فشعر هؤلاء فيضٌ من شعر شبلي الاطرش ، وهم وإياه كنجوم الثريّا الواحدة ، وإن يكن هو اشدّها لمعاناً ، واعظمها حجماً ، وابعدها في الإنارة مدًى .

غير انه لا بدّ لنا من كلمة نقولها عن هزّاع عزّ الدين، واخرى اوسع عن منصور عزّام.

فهزّاع عز الدين الحلبي شاعر شهيد شنقتـه الحكومة العثمانية ، على اثر الحوادث التي جرت بينها وبـين الدروز سنة ١٩١٢ المعروفة بحوادث سامي باشا . وقد شنقت الى جانبه عـدّة اشخاص من زعماء الجبل . ومن قصائده المشهورة قصيدته اللاميّة التي يصف فيها حرب اهل الجبل مع عرب الصفي . وفيها من القوّة وموافقة الحال ما ينمُّ على شاعريّة صحيحة ، ومعرفة تامّة بقيم الالفاظ إذا وُضعت مواضعها .وهذه بضعة ابياتٍ من مطلعها :

أوّل كلامي نحمد الرّبّ العلي ، القادر المعبود ، ولانا الأزل
والشكر للهادي الأمين الافضلي خاتم جميع الرسل، واكرم من بَذَل
من بعد ذا قال الأديب مرتّلي ابيات صحّ ، ولاجا هرج الزلل
قم يا قَلَم اخدم بيدّي وعجّلي ، فوق الطّلاحي جدّ لا تشكي الملل
واكتب قوافي من معاني مجـلي ، وانخب رسولًا يقطع الدّوّ ، ويصل.

منصور عزّام

واما منصور عزام الشاعر الشيخ،الذي لم يمت إلّا بعد سنة ١٩٣٨،فيجدر بنا ان نقف عنده وقتاً.هو صاحب الديوان المطبوع سنة ١٩٣٨ . وهو خصبُ نظم في مواضيع كثيرة كشبلي ، فمدح هذا الاخير ورثاه . وهو ، وإن لم يكن قد سُجِنَ وعُذِّب كشبلي في سجنٍ ماديّ منظور ، فقد كان يشعر انّه في سجن

معنويّ بين اناس لا يفهمونه . وقد جرّه هذا الى طرق مواضيع لاصقة بنفس الشعب وعاداته وطرق معيشته فاجاد فيها ، وكان مبتكرًا . فهو يصف لك سهرة الفلّاحين ، وهم يتحدّثون بما يتعلّق باشغالهم الزّراعيّة اليوميّة وهموم عيشهم ومشاكل حياتهم . ثمّ يصف لك قلّة الاصدقاء. وعقوق من عرفهم منهم وصعوبة التفاهم واياهم. وهو يقدّم النصائح لولده فريد ، وقد تعب على تعليمه وتثقيفه ، فيخطّ له الطريق التي يريد ان ينتهجها في حياته كلّها ويستوحي الاخلاق السّامية ، التي يرسمها ، من الدين، واصطلاحات المجتمع ، والاختبار الشخصي. وهو يقلّل من وصف الركاب ، لأن اكثر شعره في غير المراسلة ، وهو كثير الميل الى التعليم والتأديب حتى ليصحّ ان يقام له مذهبٌ اخلاقي تام بازاء المذهب الذي عرفناه لشبلي. وهو ينوّع اوزان الشّعر اكثر من شبلي. كل ذلك باسلوب متين وموسيقى صحيحة الأوزان مؤثّرة الوقع . لا يؤخذ على شعره شيءٌ من الرّكاكة او الإسفاف .

وإن يكن شبلي شاعر البديهة والطبيعة ، فمنصور عزّام شاعر الصنعة الشعريّة ، الشاعر العامّي الميّال الى الكتابة العربيّة الفصحى . وقد اضرّ بشعره — من حيث أنّه شعرٌ عامّي — ميله الى الفصحى وتعمّده الالفاظ المنوّنة والمتحرّكة ، على ما في ذلك من الاخطاء النحويّة ، ضررًا كبيرًا لا يعذر منصور عزّام عليه ، ويجعلنا نتمنّى لو ابتعد عن مثل هذا التقعّر غير المستحبّ . لكنّ هذا لا يمنع كون منصور عزام شاعرًا كبيرًا لا يضير به ان نقابله بشبلي وباساعيل العبدالله. فهو شاعرٌ مثلها ، وشعره منتشرٌ كشعر شبلي واكثر من شعر اساعيل . وهو اقرب الى حياة الشعب من الاثنين . يلامس بشعره اوتار قلوب اكثر عددًا مما يلامس شعر زميليه ، ولاسيّما بما عنده من الحكم والتعاليم التي سهّلت حفظ شعره وساعدت على انتشاره والتمثّل به بين كافّة الطبقات. فمن تعاليمه قوله :

اوصيك لا تمشي بليل وريبه ، مالك ومال مسافر الليل والريب
إيّاك تشهد زور لو هي غصيبه ، الله لا يرضى بزور وتلاعيب
لا تغتيب الناس في كل غيبه ، بدربك علّام المغيّبات والغيب
لا ترافق الشّينين اهل الغريبه ، حذراك منهم رفقة الضّان للذيب

ولد يخاطب ولده فريد :

اكرب عنان النفس لا ترخيها ، من خوف تتكردس ، انت وايأها
اياك ، ثم اياك ، عرض الغافل ، يرميك في نار شديد لظاها
لا تدعي الثعبان يدخل بيتك ، حسود نبع الكبريا منشأها
اوصيك دار الذل لا تسكنها ، لو انها باربع طباق بناها

وله من ألفية :

الشين : شرساً ذو ضماير يناجها بعوايد فيها تمكن مزاجها
لا تطمئنَّ في غماحك علاجها ، ذر بابا من شجرةٍ واعوجاجها
وعليك تعديل القوام غصونُ
الغين : غث ممن أتته غوائلا وأكرم فقيرا ، كان إذ ذاك سائلا
لا غروَ أنّ العمر كالظل زائلا ولا تقول فلان ذو باس طائلا ،
فيأتيه من بعد الحياة منونُ

وقال من قصيدة ترينا اسلوبه الخاص بالنظم :

قال ناشيها ، بقرطاسٍ غميق ، ميم نون وصاد واو راء تلاه
خاض فكري ببحر صافي عميق ، يا لَهُ أجاج ما اوسع مداه !
فيه مطموس الفكر يخبط غريق ، حاذق الأفكار يسبح في مياه
كل تنبل طلطحي ليسَّ خليق يفهم الرموز ويداري نباه
او يروم الشبه بالناهي يحيق لا ينال ، ولا يحوز الاشباه
قال : قامة ميس بقدٍّ رشيق ، قلت من ابن الرشاقه والخلاه
صوت مطرب لا يمادله نعيق ، والسبطري لا تماثله قناه
أين رائحة الكريحة من الفتيق ! مسك فايح او عبيره في شذاه
هذا هو بحر الذكا ، لا هو عقيق ، خلّ رجلك لا يرده من حياه
عمت فيه ، ولا شربت إلّا الرحيق واشتفى منه غليلي من ضماه
بالتّصور طالما ذهني يحيق يا خليلي ، هات ناولني الدواه
هيّي لي قرطاس ، عنّي لا تعيق ، نكتب رموزًا لفاهم ما خفاه
كل ما جاريًا ثابت حقيق أنا عارف به من ابتداه
وأنّ أنانا ملق يتظاهر صديق ، كن متلوّن انا عارف هواه
بالحضور يكون كأخٍ شفيق ، وهو مكمن مثل صلّ في خباه
في نجاحي وانشراحي كالشقيق ، بالملازم صدّ واعطاني قفاه
وان تكلّف في بلول الفم ريق ، بعدها يجتنب خدامات الوفاه
وان تنقّل من حريقٍ لحريق ، مستويّ الحال ، ما يُرجى نجاه

كم يقول ، وكم يذوق ولا يذيق وان تفوّهت القرينه ، مدّ فاه
يترك الصاحب ويجنح للرفيق خبّروا فيها خبرين الرُواه
يا لَما بي من زفير وشهيق ، آه من كيد النسا والفوز آه

الى ان يختمها بقوله :

يا إلهي ، نجّني من كل ضيق واستمع من عبدك الخاطي دعاه !

وله قصيدة يعدّد فيها اصناف البشر من العابد الضعيف يعبد الله ، الى الطمّاع عابد القروش ، الى المتواضع فالمتكبّر ، فالذكي ، فلطيف المعاشرة ، فالذي طبعه كِلابي فهو « ناهش ومنهوش » ؛ الى ان يقول — بعد ان يكون حذّر القارئ من النّساء كعادته في اكثر قصائده ممّا يدلّ على سوء ظنّه فيهنّ :

كم قلت ! وكم وصّيت ! راحت وصيّتي مثل التنا عند الذي مطروش
بجدي تعاليم الحديثين حفظهم ، وهيهات ترسخ في عقول هروش
حقّا جليس السوء ممقوت بالحشا ، لو كان جالس في قصر مفروش
سريت اجدّ السير الحق رفاقتي اصبحت محتار الفكر ، مدهوش
تخاني زماني عن اوطاني وخلّني على دوّ خالي ليس فيه طروش
سوى الثعلبي والذيب والدب والضبع ، خاب الطلب واصبحت بين وحوش

واذا عرفنا ان منصور عزّام من الشعراء الجبليين المخضرمين اي الذين شهدوا العهد التركي فالحرب الكبرى فالعهد الجديد ، عرفنا قيمته كشاعر صلة بين القديم والحديث . وإن نحن وضعناه بين القدماء بدلًا منه بين المعاصرين فلأنه الى القديم اقرب منه الى الحديث ولأنه ، وان توفّي منذ عهد قريب جدًّا ، فانه عمّر نحو الثمانين سنة عاش اكثرها في عهد شعرائنا الاقدمين.

وليس هذا شأن الشاعر صالح عمار ابو الحسن الذي سندرسه بين المعاصرين ، وإن يكن عاش قليلًا مع القدماء . ذلك ان هذا الشاعر المشهور اشتهر خاصّة في العهد الجديد ، بعد العهد العثماني ، وإن يكن قد قال الشعر في ذلك العهد ، اي حوالي سنة ١٩١٠ - ١٩١١ — وكذلك القول عن فندي عزّام وغيره من الشعراء المسنّين.

اما الآن وقد عرفنا شيئًا عن صفات الشعر الجبلي في الحقبة الممتدّة من مطلع القرن التاسع عشر حتى اوائل القرن العشرين . ورأينا ما في هذا الشعر

من الطبيعة ، والبساطة ، والخصب ، وصدق العاطفة ؛ وان اكثره من الرسائل الشعرية التي يرافقها ، بحكم الطبع ، اعداد لوازم السفر والمسافرين وتفنن الشعراء في كل ذلك ، مع ما لهم من الأساليب لنظم هذا النوع من الشعر الترسلي ؛ فقد اصبح بامكاننا ان نقلب الصفحة ونبدأ بدرس الشعر الحديث او المعاصر مقدمين لهذا الدرس بوصف عام لتطوره مع الايام تحت تأثير الحوادث السياسية ، والاجتماعية ، والفكرية ، حتى وصل الى مرحلته الأخيرة هذه ، وهي مرحلة انتقال من الأدب العامي الى الأدب الفصيح ؛ بل قل مرحلة الازدواج يعيش فيها الشعر العامي القديم العهد الى جانب الأدب الفصيح الفتي — ذلك يحاول ان يتجدد ليحيا ، وهذا يجتهد في ان يكون قوياً ليطاول ويتغلب شأن جميع الاشياء في تنازع البقاء .

القسم الرابع

الشعر الجبلي الحديث

ما إن انتهت آخر حرب للدروز مع الدولة العثمانية حتى اشتبكت هذه بحربها مع ايطالية في طرابلس الغرب ، فأخذ الشعراء — شعراء الفصحى — كحافظ ابراهيم ، وولي الدين يكن مثلاً ، ينعون على الطليان اكتساحهم لبلد عربي ، وان يكونوا قد انتزعوه من العثمانيين ، فمنهم من يناصر العرب الطرابلسيين لانهم عرب ، ومنهم من يناصر الدولة العثمانية ، لأنها شرقية اسلامية ، ضد دولة غربية مسيحية . أخذ الأدب العربي عامة والشعر بنوع خاص يميل الى التحدث بالمسائل السياسية فلا يكتفي بوصف الحرب لغاية الوصف وحدها ، ولا يتكلم عن الامة العربية والشرق وما الى ذلك من المواضيع التي اخذت تشيع على السنة الكتاب والشعراء إلّا ليبدي رأياً ، ويسن شريعة ، ويدافع عن مبدإ ، إلّا ليوجه .

واخذ الشعر الجبلي — واهل الجبل مفطورون على حب العظمة في حرية وسيادة — يقوم بقسطه في هذه المعركة القومية الكبرى . واصبح يصطبغ

بصبغة سياسيّة عامّة طغت عليه ووجّهته توجيهاً اخيراً : فاصبح يسجّل الحوادث، ويمهّد لها ، شأنه شأن الصحافة . وجاءت الحرب الكبرى فاذا بالشعر تنطفئ جذوته ، إلّا فيما ندر ، وإذا باهل الجبل يعملون على الاستفادة من هذه الحرب بقدر ما يستطيعون : بلدهم خصب التربة يكرم حين تبخل السّنون ، ويزهو حين تربدّ الآفاق . والبلاد حواليهم في محل ومجاعة فهم يبيعون الحبوب الى الاغنياء بأثمان رابحة ، ويفتحون ابوابهم واسعة للفقراء اللاجئين من كافّة الانحاء السورية ، غير مميّزين الدرزي من السنّي من المسيحي . كانوا القناة التي تسيل مصدرها اموال الاغنياء ومصبّها العائلات الفقيرة التي اراد لها الحظ ان تلجأ الى الجبل . فهم يبدون كاحذق التجار في معاملاتهم مع الإغنياء الرأسماليين ، وكأسخى الكرماء في معاملاتهم مع اخوانهم المعوزين . كانوا جميعهم يمثلون هذا الدور النبيل من اصغر الفلاحين الى اكبر الشيوخ . ومن الانصاف ان نسجّل هنا لدار شبلي الاطرش — وكان فيها المرحوم الأمير سليم الاطرش — مأثرة جليلة لم نستطع قدرها حق قدرها إلّا عندما شهدنا حربنا الحاضرة هذه ، ورأينا مدى ما يقاسيه الشعب من ألم وحرمان وتعرّض للمخاطر . وهذه المأثرة هي تقديمها الطعام يوميًّا — طيلة مدة الحرب — في ساعات معينة من النهار ، داعية اليه كلّ جائع في البلدة سواء أكان فيها من قبل ، ام قاده اليها ما سمعه عن هذه العادة الجميلة .

شغل اهل الجبل اهتمامهم بمشاكل الحرب عن الشعر — ولكن الى حين — فانهم ما ان علموا بتقدّمات الثورة العربية حتى اخذوا يرسلون الوفود لمفاوضة قادتها ، واخصّهم المرحوم الملك فيصل ، والاتفاق معهم على الاشتراك في هذه الثورة . فقد طالما حاربوا الدولة العثمانية وحدهم ، وها هم اليوم يجدون انفسهم امام جيش عربيّ يحارب اعداءهم المزمنين بفكرة قوميّة استقلاليّة ، فكيف لا ينضمّون اليه ؟ بل كيف لا يكونون في طليعته ؟ ذهبوا الى الصحراء ، واشتركوا في الحملة العربيّة تحت امرة المرحوم فيصل وما رموا السّلاح من ايديهم حتى دخلت الجيوش العربيّة المظفّرة دمشق ، وكان فرسان الدروز في مقدّمتها . ورفعوا العلم العربيّ في مدينة الامويين وعادوا ثملين بخمرة هذا الفتح المبين .

وإذ ذاك بـدأوا يحنون الى الشعر ، بدأوا يعودون اليه الفترة بعد الفترة . فكان شعرهم هذا شعر ذكرى ، وفخر ، وغزل ، شعر من وضع رأسه — الى حين — على اكاليل الغار ، فنام وهو لا يعرف شيئاً عما تخبئه لـه الاقدار . . .

ثم توالت الاحداث على الجبل ، واهمها تلك الثورة الدرزية التي عرف تفاصيلها الخاصّ والعام ، فكانت من ملهمات شعرائنا ، وكان لنا شعر حماسيّ يُثير الناس ، وشعرٌ حربي يصف معاركنا وانتصاراتنا الجديدة ؛ وفيه ، طبعاً ، تجديد كثير ، بالنظر الى ما كان عليه ان يصفه من الاسلحة الجديـدة كالطائرات والدبّابات والرشّاشات وما اليها . ثم كان لنا شعر الصحراء الجميل ، وكان لنا عهد جديد للشعر الترسّلي يدوم نظمه عشر سنوات على خط دائم بين الصحراء والجبل . وفي هذا الشعر لوم الذين القوا السّلاح قبل الاوان ، وهجاء الذين حملوا السّلاح ، ضدّ اخوانهم ، طمعاً بالمال ، والحنين الى الجبل ، والأمل بالرجوع اليه يوماً .

وكان هناك شعراء ينظمون الشعر الغزلي ، وقـد اطّلعوا على شعر رشيد نخله وسواه من شعراء الزجل في لبنان ؛ فحصل في شعرنا تجدّد مال به الى الرّقة والطلاوة .

وكان هناك شعراء لم يعد امامهم مجال لنظم الشعر السياسي ، فاخذوا ينظمون الشعر الأخلاقي ، او الاجتماعي ، فيذكرون منافع التدخين ، ومضاره ويتجاوبون . ثم تحدث حادثة في قرية فيصفونها ويتغنّى بها المتفنون فتنتشر في كافة انحاء الجبل وتصبح حديث الخاص والعام . واخذ الرمز يتسرّب الى شعرنا .

وسمح الوقت والهدوء بابتكارَ اساليب غزليّة جديدة فيها ما يسمّونه « عروس شعر » ، اي امرأة يرسلها الشاعر الى بلاد عديدة ، او رجال مشهورين ، في بلاد مختلفة ، فلا تقبل ببلدٍ لها مسكناً ولا بزعيم لها زوجاً ، بل ترجع الى الجبل لتختار منه احد وجهائه . ثم يموت احد زعماء العرب فيرثونه ، وتثور فلسطين فيؤازرونها في نضالها ، ويموت الملك فيصل فيرثونه ، ويضعون رجاءهم في غازي ، ثم يموت هذا ، فيقطعون الرجاء ويبكون بدموع حرّى في قصائد ممتازة .

وتنشر في هذه الفترة بعض الدواوين ، واشهرها ديوان شبلي الاطرش ، ومنصور عزّام ، فيطّلع الناس على شعرهم مكتوباً بعد ان حفظوه حفظاً .
ويُطبع ديوان جديد لعلي عبيد وبعض رفاقه اسمه : « ربابة الثورة » وفيه نماذج رائعة لكل ما ذكرناه من انواع الشعر الجبلي الحديث . وفيه مقدمة بقلم السيد سلامه بن علي عبيد ، صاحب الديوان . ولهذه المقدّمة قيمة لأنها تأليف شاعر شاب بالعربيّة الفصحى يقدّم لشعر والده الشيخ الزجلي .

ونحن إذ نعرض لهذه الفترة الممتدّة من اوّل القرن العشرين حتى يومنا هذا سوف نجتهد بنوع خاص في رسم معالم التطوّر الشعري عندنا وذكر ما طرأ عليه من تجدّد ، وتبيان صفات بعض الشعراء الأحياء ، دارسين ثلاثة شعراء درساً مطوّلًا بعض الشيء . وهؤلاء الشعراء هم :

صالح عمار ابو الحسن المعروف بـ« عمار » ، وهو شاعر شعبي شعره كثير الانتشار .

وسليمان عبدي الاطرش ، شاعر الغزل والموسيقى بلا منازع .

وعلي عبيد ، شاعر السياسة الجبليّة والعربية .

صالح عمار ابو الحسن

هو شاعر الثورة ، ومسجّل كافة معاركها ومحمّس رجالها . وهو يُعرف في الجبل بـ« عمار » .

إن « عمار » شاعر شامل نظم في كلّ فنون الشعر : نظم في المديح ، والرثاء ، والهجاء ، والغزل ، والترسّل ، والفخر ، ووصف المعارك . ولكنك لا تكتشف شاعريّته القويّة وموسيقاه الفنية إلّا في وصف المعارك . وهو شجاع خاض غمار معارك الثورة باجمعها ؛ فهو إن وصفها ، فإنما يصف ما شاهده بامّ عينه لا ما سمع به . تُفتتح الثورة في عرمان فيصرخ :

عرمان مفتاح الحراب وكادي صارت فرج للشهون النهبا !(١
شيوخها وشبّانها والاولادي ضربانهم يوم الملاوي عطبا

---

١) نهب الارواح طباً

وتتوالى المعارك : من معركة الكَفْر ، الى معركة المزرعه ، الى معارك عرى ، والمجيمر ، والسويداء ، والمسيفره ، وام الرّمان ، وابو زريق .

يا راكباً من عندنا هبزعيّه مثل الظبي بروس النَّفل تعتاش
ما تمدّ من عندي على الرحب ، والصفا تلقى على « الأزرق » قبل خب الادغاش
سلّم على الباشا ، وخبّر عطوفتو ، واحكي الصحيح ولا تكون غشّاش
كون جرى بأبوزريق ما ينحكى ، بو العقل من رزم المدافع طاش
جرّد علينا جنود بصرى ، وصلخد ، بكل المراكز جندي ما خلّاش
خمسين رمكه راحت بكرم واحد من فعل اللّي بعد ما ادّاش
صمدنا كما تصمد سباع الكواسر حاطوا بنا وعياً « علي » ينحاش
لو بعد نصمد ربع ساعه ومثلها ما كان واحد من رجالك عاش

ويعرّض بفريق من الثوّار لم يسرع الى النجدة فيقول :

(بقيصا) ربماً كثار وفوارس لكن جمهم عالحرب ما اجاش
ما هو سبب تأخيرهم يا رفاقه ؟ بنهار ريح ، وقال ما نسيناش
دَوحُ المَدَّل مثل كفي المخار سبع الرّمي من كان بالوشّاش
البعض منهم كان بالنوم غارق ، والبعض منهم دايري عجحاش

حجّتهم بعدم المجيء واهية فصوت البارود كان شديداً حتى أنّ من كان بالوشّاش — وهو تلّ يقع في الصحراء — كان يستطيع ان يسمعه ولكن :

اللّي حضر بالكون منّا كفاهم ، ربعك ذياب وعاديا بكباش

وشعر « عمّار » الحربي له قيمة غنائية كبرى فجموع المتحاربين لا تتغنّى بغيره الّا نادراً . وسهولته ، وكثرة الامثال والحكم فيه ، جعلته ينتشر في الجبل انتشاراً كبيراً . ولا اظنّ أنّ في الجبل شعراً عمّت معرفته ، والتغنّي به ، سائر طبقات الشعب — بعد شعر شبلي — كشعر عمار . ففي كل مجلس وفي كل عرس او حفلة ترى المغنّين يتناشدونه ويردّدون اسم صاحبه . حتّى ان عمار يَعِد من يصمد في الحرب حتى النهاية بأنّه يربح من شعره — وهي اكبر مكافأة يمكن ان يطمع فيها شجاع :

واللّي يصمد للتالي يربح من قصيد عمار

ومعنى ذلك ان اسمه (اي اسم من يربح هذا القصيد) سينتشر مع هذا الشعر ويشتهر بشهرته، وكفى ذلك الجبلي فخرًا ان يعرفه اصغر انسان في اصغر قرية من قرى الجبل.

وعمار يجيد كافة انواع الشعر من الشروقي، الى القصيد، الى الفن، الى المطلوع، والمعنى. وعمار يمثل في عالم الشعر دورًا لا يمثله سواه. وهو يعرف قيمة نفسه ويحرص على الاحتفاظ بمكانته. وهو اول عهده بالشعر كان جنديًا اجباريًا في الجيش العثماني، في جهات الروملي. وكانت العصابات البلغارية تعيث في المملكة العثمانية فسادًا كلما أتيح لها ذلك — قبل الحرب الكبرى — وكان صالح عمار في دورية مع بضعة جنود اتراك وارناووط، واذا بهم يصادفون الكابتن مارشان وعصابته ويشتبكون معهم بمعركة فيهرب رفاق صالح ويأبى هو أن يهرب «لأنه عربي»، كما قال لي. بقي وحده واخذ يحارب العصابة برباطة جأش فائقة الحد ولم ينثنِ حتى قتل الكابتن واربعة من جنوده وشتت شمل الباقين. وذهب الى الجثث فاخذ سلاح القتلى وملابس الكابتن وعاد الى مركزه فطلبه المشير لمقابلته ورقّاه الى رتبة جاويش، ومنحه مكافأة مالية كبيرة ونشر اسمه في الجرائد والنوادي فأرسل الى أخيه قصيدة يلمح فيها الى هذا بقوله:

راحون خمسة كبيرهم شيخ بلنار من فعل اخو عمرا يوم الكواني
كل الحكومة خابرت والكومندار وقولة «عفارم» بالجرايد كتّني

وهكذا فان اولى قصائده كانت لوصف معركة وكانت شهرته بوصفه المعارك. وهذه الشهرة هي التي حملت كل من يحتاج الى جواب على قصيدة ان يطلب الى عمار نظم هذا الجواب. فإذا جاءت الامير حسن الاطرش قصيدة من زيد الاطرش يقول له فيها:

يا حسن، وجدي عامرة بلادنا، كنّا بها نغني حلاها وطيبها
لعبوا بها اهل المقاصد بخبثهم، لمّا تداعت، والعدو قد وطي بها
لومي بهذا عاهلي، ماش غيرهم، مُنّ سبايبها ومنهم نكيبها
ومنهم اعادة مجدها لو تعاضدوا، لكن يوم رشادها جُور نكيبها
لاما غدت رمّته من الضيم ثاويه، واللي تداعى بمجدها قد نُسي بها

دَعه حالةً ، يا خوي ، ما هي بشغنا   دار المهانه ، والنبي ، قد نسيبها
لا صار ما فيها نغذّي دخيلنا   للموت كان نعودها ونحظي بها
لا صار ما حنّا حرارًا بقولنا   حارم علينا نجيبها ونغطي بها

. . .

وان عاضبت ما هي على البال طاريا   ُبدًا ولا رفقة اسافل شيبها

يكلف الامير حسن صالح عمار بالإجابة عنه فيقول عمار قصيدةً منها :

يا زيد ! همّي زاد ، والمدّ اتلا   من لابة ، يا زيد ، دنَت رقابها
من قولتك ، يا زيد ، كانوا جدودنا   الدنيا دوار ، وسعد جدّك رقى بها
ذولاك اياماً ، وهذي بدالها ،   انظر بني عثمان كيف انقلابها
دنياك ما دامت لكسرى وقيصر   كم واحدٍ ، يا زيد ، اللّي اتلى بها !
يا زيد ما ظني علينا ملامه   بالدم خضّبنا الحنادي وغلابها
ألمان سلطان الحرايب جميعها   ما تعلّمن يا زيد ليش انغلابها ؟
كلّت سواعدنا من الطعن بالعدا ،   وجثاثهم ملّوا الرّوابي وترابها
منا انفقد ، يا زيد ، الفين فارس   وبلادنا بالدم حنّوا ترابها
تبكي عيوني ، ودمعها بنّ ثوبي ،   ما طال ما العَليا مطوّل ثيابها
لولا احتكار المال ، يا زيد ، والطمع   بلادنا تشد كان عزّك زهّا بها
وعيال تقوّى بالمخوص وامّهم   لا ما غدوا بالبُرّ يشروا ذهابها
يا زيد ، ما حنّوا من جهد باجهد   بنفاتهم ، يا زيد ، سدّوا طوابها
ما راعهم غير التي نحوم بالسا   كم من نسا واطفال اللي طوابها
لوم المصيبه عصيبه حبيبه ،   لومك على اللي للمكاتيب جابها
هني سباب الشرّ والمرك والفتن   اوراق سوري اليوم ملّوا جيابها
لعبوا بها الغش والحصد والخون   دون الإراده هم صاروا اسبابها
صاروا بواليا عنا بلا خفا   من عقب ما كسبوا ذخاير سبابها
دهر المتا ، يا زيد ، كسّر جوانحي   على صنر شلّع ضروسي غرابها
عثار انا ، يا خوي ، من حور ما جرى   على مناصب قيس يثني غرابها
لو كان جمع الضدّ مليون بالوغا   ما ظنّتي يا زيد إنّا نهابها
ثوره شريفه ترفع الشان ، يا فتى ،   لكن عطّل عالقضيّه نهّابها

ثم يرى تكالب الناس على المال والرشوة والوظائف وما اليها فيصف الناس بقصيدة رائعة فيها نقدٌ مُرّ وتهجّم مؤلم على ضعاف النفوس ولئام الطباع ، فيقول :

غنّى الذي وضّح شهابه من الغنا ،   ينقم على حرف الزمان خطاب
يالله ، يا لّلي عالم السرّ واخفا ،   تفتح لنا من بحر جودك باب
لا تعوزنا ، يا ربّ ، لباب غيرك   بجاه النّبي والأربع الأقطاب

سبحان ربٍّ ضافيَ السّتر عالملا يـا ما خَلَق بين الأنام عجاب

. . .

وفيهم بخيل وحايز المـال والقنا عالقرش يَمْـتَل مِنهُ ألف حساب
مثل اليهودي داخـلٌ دون خارج مالاً بلا بـذلٍ سَـمين كْلاب

. . .

وفيهم قليل الحق ، اصحا تشابكو ، قضبُ البُطل من يوم شبَّ – وشاب
ما يعرف الحق الـذي انه انزلوا حتى ويـاكل اجـرة التعَّاب

الى ما هنالك من وصف السارق والكاذب وشاهد الزور الـذي يجيّ اليمين على الطريق قبل الوصول الى المحكمة.

اما غزله فيتجلّى في قصائده الفنية وهو لا يخرج عن مصطلحات بقيّـة الشعراء في الوصف لحسن القوام ، وبيض الخـدود ، وسود العيون ، وطيب الأصل ، والرائحة . . . الخ .

وهو في رثائه يكثر من الأسف ، وتعداد محاسن الفقيد التي تنحصر عنده في الشجاعة ، والكرم ، والوفاء : يستشهد من اقاربنا عشرون شاباً في الثورة ، فيرثيهم رثاء صادقـاً وتصبح قصيدته نَدبَةً تندبها نساؤنا في المآتم . وهو ذو قصائد بارعة يرسل فيها عروس شعره تجول في البلاد فيصفُ لها كلُّ زعيم وهي لا ترضى . ووصفه هذا مؤلم يصيب المرمى : فمن الجبان الى الخائن ، الى الذليل ، الى البخيل ، الى الذي صورته لا طعم لها ولا لون ، ثم يعيدها الى سلطان باشا فترضى وذلك بقوله :

قُلتُ لها، يا مستوره ، يا غندوره انمي عقيد الثوره الباشا سلطان
قالت : هـذا مطنوبي عرفت النوبي وهذا اقصى مرغوبي شيخ الشيخان

. . . فتحط العروس رحالها وتستريح . وعلى ذكر عروس الشعر هذه نقول إنّ من الذين اقتبسوا هذا النوع من عمار واجادوا فيها الشاب محمد ناصر الدين الذي ارسل عروس شعره تجوب اقطار الدنيا دولةً دولة فلا ترضى بأحدٍ بل تعود الى الدروز ، لانها ترى فيهم صفات لا تجدها في سواهم ومن بعض ما في هذه القصيدة :

شو قلت عن روسيّاً فيهـا ستالين الزعيم ،
حزب الشيُوعي فيـاً ازود من بحـرٍ عميم ؟

قالت : ما هوّي ليّاً قائد الجيش الأحمر

المانيا كَنْك وازي شوفي زود الطيّارات
هتلر زعيم النازي يخصّصلك سيّارات
قالت : لو انّو جازي ما ريدو هذا جبّار

. . .

موسوليني إن كان لِكْ ذوق هُوّي زعيم الطليان
اجليه صاحب مشوق دوماً عاطول الزّمان
قالت : لي عن اهل البَوْق[1] جَنّب هذولي مغرّر

جمهوريّة افرنسيس إن كان ردتي حكومتنا
يا عيني على باريس ما هي مثل ديرتنا
قالت : لُبْران الرئيس أمَرْ والبَحر تْسكّر

. . .الى ان يأتي على جميع دول الارض فلا ترضى فتاته فيقول لها اخيراً :

مين بدّك انت ، يا « فوز » ؟ مين بدّك يا بنت الناس ؟
بتمني بدّك لدروز شعب كواسر فرّاس
للشجاعه مالك عوز يضربوا العدا بالراس
بواسل وثقال الروز من قديم الجم اساس
قالت : والله ، لا حُوز فيهم وان الله قدّر

جبل الدروز يا ناس ضافته احسن فتاة
ام الذهب على الراس ، اجمل من كلّ البنات
حنّا من زمان إلياس سُمّينا اهل الرّايات
اختمها بخلّاق الناس حامي اعمال البَشَر !

وصالح عمار كما قدّمت شاعر شعبي لا يترك موضوعاً إلّا طرقه . اجبره الزمان مرّة على العمل في « ابو زريق » مرابعاً — اي مزارعاً يقاسم على الربع — فيحدث له ما يغضبه من سلوك اهل القرية فيقول من نوع « الفنّ » قصيدةً مطلعها :

صاحي لدهرك ، يا لمرابع ، صاحي لا تسكن ببوزريق انا النصّاحي

يعدّد فيها الاسباب التي جعلته يتركها ويدعي عليها بالدّمار فتنتشر قصيدة عمار ويكره المرابعون « ابو زريق » كرهاً شديداً ، ولا يرضى بالعمل فيها إلّا رُجُلْ

---

١) الخيانة

يعجز عن العمل خارجها . وهكذا نرى هذا الشاعر — ونتمنى عليه ان يُعنى بنشر شعره في ديوان — يؤرخ في شعره جميع الحوادث في نحو نصف قرن ، وسوف يكون شعره مصدراً مهماً من مصادر التاريخ عن هذه المنطقة في هذا النصف الأوّل من القرن العشرين.

وكذلك القول عن سعيد عز الدين الحلبي صاحب الملاحم الكثيرة القويّة المتصفة بصدق العاطفة وصراحة اللهجة وطول النفس .

علي عبيد

واذا كان لنا شعراء كسعيد عز الدين يسجّلون تاريخنا الحربي ، فإنّ لنا شاعراً يسجل تاريخنا السياسي . وهذا الشاعر هو علي عبيد صاحب «ربابة الثورة» التي جئنا على ذكرها . فعلي عبيد هو الذي يذكر لنا كيف تطوّرت السياسة الجبلية منذ الحرب الكبرى حتى يومنا هذا . ومن الغريب ان الشعراء كلّهم يعرفون انه شاعر السياسة . ولذلك تراهم يكتبون اليه بمواضيع سياسيّة . فهلال عز الدين ، وحسيب ذبيان ، وقاسم ابو خير ، وعلي الملحم ، وسواهم يبعثون اليه بقصائد سياسية يُبدون فيها آراءهم ويسألونه رأيه . وهو يجيب الكل بما تقتضي الحال . وهو حاكم صلح السويداء ، قبل الثورة . وهو من وجهاء هذه المدينة . لذلك كان يستطيع ان يطّلع على مجرى الحياة السياسية اكثر من سواه ، ولذلك رأيناه يتنبأ بنشوب الثورة في اجوبته على قصائد هلال عز الدين . وهو يرافق الثوّار الى الازرق ، ثم الى النبك ، في الحجاز فيتولّى مهمّة تشجيعهم كلّما احسّ منهم ببعض اليأس . وهو يؤرّخ الأعياد فينظم قصيدةً بمناسبة عيد الاضحى كل سنة يذكر فيها كل ما يجيش في خاطره من الذكريات والافكار والآمال كقوله بالعيد التاسع (لهجرة الثوّار) :

العيد مقبل ، ما لنا به حاجه العيد للي في وطنهم عزيزين
وش عيدنا والذلّ خيّم رواجه(١ ماذا نجاوب لجموع الميدين
العيد حق العيد يوم النجاجه ، بين الطراد وتحت سود الدخاخين
هذاك يوم العيد ، يوم الملاّجه(٢ ، إمّا نحوز المجد والاّ شهيدين

١) رواقه . ٢) الملاقاة .

مها بنايا الظُلم عليت برَاجه   الحق هادمها ، ولَكنّه بعد حين
معها علينا الدهر كثَّر غنَاجه ،   حنًا بحكم الله ربمًا صُبورين
دنياك بعد الغيم يظهر فَحاجه   وعقب الدمّاس النور لازم ترى يبين
بعض الشَّجر كانون يُسقط وراجه (١   وبعد اليباس تعود كلّه باتين
وكل مان يزرع زرع يرجى نتاجه   يا غير زرع الخير عند الرديين
وكل داء غير تلقى علاجه   إلا الطّمع ودُو سيوف شطيرين
يا الله للطمّاع تُضعف هياجه ،   بجاه النبي المختار خير النبيين

وهو يسجّل جميع الحوادث التي رافقت المفاوضات السورية عام ١٩٣٦ حتى رجوع الثوّار ، وما وجدوا من ضروب الاحتفاء والمهرجانات الى ان يعودوا الى الجبل ، فيختبر الشاعر الحالة الراهنة فيه ، ويعرف آلام الفلاح وفوضى التوظيف.

سليمان عبدي الأطرش

ولكن الظروف القاسية التي ذكرت لم تستطع التغلّب على فرح الشاعر سليمان عبدي الاطرش ولم تطفئ ابتسامته الدائمة : ابتسامة السخريّة وعدم الاكتراث. فسليمان شاعرٌ غنائي ابيقوري من الدرجة الاولى . بل هو اكبر شاعر جبلي من هذا القبيل . يعبّ ما تقدّمه الحياة من ملذّات ويدعو الى الاقتداء به في عمله هذا ، ويصف فرحه ولَذّته واستبشاره بشعرٍ باسمٍ منيرٍ لا يجد الحزن واليأس اليه سبيلًا . وهو اشهر موسيقي في الجبل . يُنطق الرّباب — وهي على ما هي من البساطة — بانغام الكمان والعود والپيانو ويتغنّى — اكثر ما يتغنّى — بشعره الخاص ، فتعيش واياه في جوٍّ من الشعر صافٍ لا تشوبه شائبة . يُريك ويُسمعك فيُفهِمك الجوّ الشعري الذي نظم فيه قصيدته ، فتحسّ جميع ما احسّ وتشاركه غبطته وتكاد تنضمّ الى حزبه وتجيب دعوته ، لولا انّك — عندما تخرج من الجوّ السحري الذي خلقه لك — تثوب الى رشدك ، فتتابع طريقك في الحياة ، ويتابع شاعرنا الابيقوري طريقه. اما اجمل شعره فهو الغزلي وفيه من

---

٣) اوراقه

تنوّع الأَوزان وتعدُّد الأَلحان ما يشهد بجسن ذوق الشاعر الموسيقي. فهو صاحب « المطاليع » الكثيرة والمقطعات التي يندر وجودها عند سواه من شعراء الجيل. ومالي اصف شعره بالكلام العاجز عن استيعاب جميع صفاته وجمالاته ، وباستطاعتي ان اورد هنا « مطلوعاً » واحداً يبيّن بنفسه عمّا عند قائله من شاعريَّة قويَّة ونَفَس طويل وطبعيَّة عريقة لا أثَرَ فيها للتكلُّف او الصنعة :

إن كان عندك مثل ما عندي غرام   طاب كيفي بحياتي ، يا سَلَام
كُنت بحمل مترلي فوق النجوم ،   وكنت بتمشّى على ظهر الغمام
كنت بتمشّى وبيني مترلي   فوق ظهر سهيل بيني معتلي
دوم غنّي « ميجنا » « وهويدَلي »   وشوف كل الكون ضحك وابتسام
وشوف كل الكون ازهار وربيع ،   واللّيالي العزّ ، والعصر البديع
عز مدقوق السها ، عالي ، رفيع   فوق موج الراديو وفوق الانام
فوق موجات السواني والرياح ،   تسكر رباب الهوى ، من دون راح
شو على بالي بقى! وزين المَلَاح   لو حصلّي طاب كيفي والسلام!
لو حصل لي صار بيني وبينهم ،   حب متبادل سوى اثنينهم
هم على ديني ، وأنا عادينهم ،   يا بنعبد ربّنا يَا الصنَم!
يا بنعبد خالق الدنيا سوى ،   يا بنفصيها على دين الهوى
يا بنجملها عَطَش ، يا إرتِوا ،   يا بناكل ، يا بنجعلها صيام
يا بناكل كلّنا ، يا نجوع ،   يا بنسكن بقصر يا نجوع
يا بنترل يا بنتعلّا طلوع ،   يا نحيا تنّيتنا ، يا عدَام!
يا بنحيا عالمحبّة تنيتنا ،   يا نتمضى بغرد تكبي عينا
اتّفقنا بالقسام ودينا ،   لا جدال ولا نزاع ولا خصام!
لا جدال ، ولا نزاع ، ولا عَنا ،   هيك لازم هو يكون وكون أنا
المحبّي ما يلذّ الها الجَنَا ،   غير ما المحبوب كالبدر التمَام
غير ما المحبوب آيه من الجمال   شو بقا نفع المحبّي والوصال
بجميع الصيد ما مثل الغزال ،   او قمر شق الكواكب والظلام
أو قمَر نور الكواكب وقمرو ،   لي وَليف ما اظرفو ما اسكرو
مثل حسنو ما حكوا ولا خبّروا   وان وصفتو ما بجيبو بالكلام!
وإن وصفت عيون سود مهذّبي   ناعسات وذابلات مكهربي
والجبين اللي بدَا يسبي سَبي   والحواجب نون كخط القلام
والحواجب مثل نون مخطّطَا   مليح عا باريس ترسل مضبطا
قدّ ما تكون الأمور مخربَطا   كلّ مشكل حلّ لو طلبت قوام
كل مشكل مع جناب اكبر وزير   ما بقى « للوفد » من امر عسير

حلّ مشكلها وأمر : دقّ النفير … نالت « الوحده » دروزه والشوام
نالت « الوحده » كرامة عينها ، … تأثرت باريس شافت زينها
بين منحرها وبين جبينها … ألف لكس اللّي مشمشع بالتمام
الف لكس من الوجاين والخدود … كل واحد ، مع ليمو ، في ورود !
والسوالف ، والكذيلا ، والجعود … هفّ عالمتنين كريش النعام !

إنّ غرام سليمان عبدي ينتهي دائماً بارتفاع الشاعر عن عالم الأرضيّات ، وتركه العالم الصغير الى عالم النجوم والخلد ، يتمشّى هناك مستصغراً كلّ شيء غير حبّه ولذته الفائقة الوصف . وهو لا يرى في الحب شيئاً يجب أن يُستر . فالحب مباح وعلى المحبّين ألّا يخجلوا به ابداً . . . يجب أن « يخلعوا عذارهم » في الحب على مذهب ابن الفارض ! وسليمان يُوفّق دائماً الى التعابير والصور والألوان والانغام الملائمة لوصف هذا الجوّ الملائكي الخلّاب . ونحن نورد فيما يلي مثالاً من سفره الغزليّ يدلّ على مذهبه الخاص المبتكر فيه :

الله علي عُذّالنا ! ما يسحوش … إلي ساعه مع حبيبي خوش بوش
حتى معو اصعد على سابع سما … ودوس المسالك بطريقي والعروش
حتى معو اصعد على سابع سما … وشوف كل الكون تحتي كسكما
ما يصير علي رقيب ولا حما … ويكنّ نجمي بالسما يعمل عشوش !
بكل نجمي عشّ نعمل للغرام ، … اهل السما ما في عليهم شي حرام
وتضلّل بظل البنفسج والخزام ، … والورد والريحان حتى المردكوش
والورد والريحان فوق اللي سرى … كل شي جرى : عندي يصير مسخرا
ونشوف ملايكة السما حب اشكرا ، … ما نستحي منهم ، وهم ما يألوش
ما نستحي ، من ايش بدنا نستحي ! … أنا وحبيبي عن العواذل ننتحي
بين السما والارض صرت مشوشحي … بجوّ خالي ما في كلّ روش
بجوّ خالي من عواذلنا ، فسيح ، … نسمع ديوك العرش حولينا تصيح
ونشوف سيدنا محمد ، والمسيح ، … يسامحو ، يباركو ، ما يزعلوش
يسامحوا ، يباركوا ، ما يزعلوا ، … حبث في هالدني : حلو حابب حلو
كل الملاح المنصفين يقبلوا … غير الذي ما يفهموا ما يتبلوش ! الخ . .

ولا يقتصر تفاؤله وفرحه على شعره الغزلي بل يتازجان كل شعره على الاطلاق . فانت تلمسها في وصفه جبل حوران ، وتلمسها خاصة باوزان شعره وكلامه ونوع تعابيره وقوافيه :

الله يعزّك يا جبل حوراني ! … يا منبت الأبطال والفرساني

كل الشجاعه والكرم جبلك ، حييت ، يا شامة عرب بستاني
حييت ، يا عالي الذرى ، يا شامه ، يا سور اوطان المنى والشامه
كل الخلق تتقلدك بالشامه ، وانت الذهب مسبوك بالميزاني !
انت الذهب ، يا معلي ، منقودي ، واللي تقلد سطوتك منقودي
ياما هدوا ليك العرب من قودي ، تا يحتموا بعالي الذرى الفوقاني
تا يحتموا ، يا معلي ، بركانك ، يا ويل خدك ، لو شمل بركانك
ياما تأمن محتسب بركانك ، لو كان عاداه الأنس والجاني
لو كان عاداه عدوه عيا ، ويشوف باسك في كلامو عيا
انت المدى : بالشرف موعيا ، مالك على وجه البسيطه ثاني
مالك على وجه البسيطه نديّ ، ومن سمتك فاح العطر والنديّ
ان رضيت ، يعف المطر والنديّ ، ويوم ترعل تشعل النيراني
لو ان ترعل عالبحر يغوري ، حتى النجم لغارتك يغوري
تعرف مواضيك الترك ينوري ، شهدون باسك ، والدما غدراني
شافوا مواضيك النرر ، وحجولي ، حامي ذراه سوارها وحجولي
ما كان صيدك بالزمان حجولي ، غير الذين يلبّسوا التيجاني
غير العراضي ومرتبك منصوره ، في غيرك بلاد الشرق من صوره ؟
ربك ودع فيك العلى من سوره ، فتح المبين بآية القرآني
فتحاً على كل الطوايف عالي ، برجك منيع ودوم ذلّ العالي
بين العرب بتكون عال العالي ، وجدك ترى ماء السما النعماني
ماء السما لا يا معلى ، جدك ، كان القديم ، واليوم افضل جدك
نحو المعالي والمفاخر جدك ، حتى غدا في قمتك ايراني !

وشعر سليمان كثير الشيوع سريع الانتشار ، لأنه يهزّ اوتارًا في قلب الجبلي لا تقلُّ حساسية عن اوتار الشجاعة والرجولة ألا وهي اوتار الحب والمَرَح . وقد فتح في الشعر الجبلي باباً جديدًا — بل لعلّه جديد في الشعر العربي ايضاً — الا وهو باب « الشعر التبغي » .

فهو يجيد وصف مضارّ التبغ كما يجيد وصف منافعه ، وهو يدخن بكثرة مع ذلك . ولا يقتصر في ذكر منافع التدخين المادّية — وهي قليلة — بل يصف خاصّةً مفعوله المعنوي الالهامي . وقد اثار وصفه التبغ ودعوته الى التدخين حرباً شعريَّة سنوردها بجملتها لما هي عليه من الطرافة والابتكار ، وللدلالة على ان الجبلي الشاعر لم يَغفل شعراؤه عن ايّ موضوع ، ولم يقصروا

في ايّ نوع من انواع الشعر ، بل سبقوا في الكثير منها كثيراً من شعراء الفصحى . كان سلمان عبدي الاطرش يُدخّن ، ثم اراد ان يمتنع عن التدخين فوصف مضارّه بالقصيدة التالية :

اوّل عذابك حرقة النار لايدك ،   وثاني عذابك تَخشّنو مع وريدك
وثالث عذابك ينقصك ما يزيدك ،   ورابع عذابك بالعمر ما يفيدك
وخامس عذابك خم حلقك والضراس ،   وسادس عذابك يعلمك باش قَحّاح

التتن ، يا معمي القلب ، ما يسلّيك   يحرق عظامك ، والدخاخين تعميك
ويجرّ كبدك بالصدا والتواعيك ،   ويدعي بزلاعيمك مثل صيحة الديك
خمسين فرشاي ، وثمانين كنّاس ،   ما نظفوا صدرك من بحوح وكلاح

عاده قبيحه تدعي الرّجل عملوك ،   صفرا سنونه ، تخبث الفم وحنوك
كالمشحره اللي تصبغ السقف وفكوك   تعطل احواله وصوته يصير مدكوك
وبالليل تسمع لشخيره والانفاس   يغلي ولا يحكي مثل صوت ضبّاح

الباحكى بالناس ، بان الحكي جرش   ولنّوا غلاماً صار صوته كما الهرش
هذا الذي يعادتو يشبه الوحش   لو كان يملك من جميع الرزق قرش
يه اشترى دخّان،واصبح بالفلاس ،   وخلّا عيالو بجوعهم لطم ونواح

انا انصحك، يا صاحبي ، بطّل التبغ ،   وارتاح من صبغة سنونك مع الصبغ
وريّح عبابك من حريقات مع دبغ ،   وريّح كفوفك من تلا اللّف والمزغ
وكافيك تُرهق روح ربعك والجلاس ،   طاوع كلامي ، واترك التبغ ، وارتاح .

ثم كان ان ندم الشاعر على تركه التبغ ، وحنّ الى التدخين ، فاراد ان يبرّر هذا الحنين وهذه الرجعة بقوله :

قلبي تمنى اشتري اليوم باكيت،   تركي أمالي والسكاير مذهب
الّيا فتحتَه ، وريحة العطر شمّيت،   يطرب دليلك قبل ما تصير تشرّب
طول السكاره، وولعَه بعود كبريت،   وان ولّعت من قبل ماتذب تطرب
فَحتّت بريحه فايحه عَطر البيت،   والّا كما عودٍ من الندّ واطيب
لوان حبيبك عقب الفراق لاقيت   بَوْسْ السيكاره مثل بوسه واطيب !
لوان سيكاره بداخل القبر حطّيت   يضحي القبر يشبه لقصرٍ مرتّب
شربه لذيذ يشتّت الهم تشتيت   كنّك مريض: هذا دواك المجرّب
والما شرب دخّان عدّه كما الميت   واللي شرب: لو كان شايب رجع شب
قُل للذي بَطّل يدخن سيكاريت   ضيّعت لَذّاتك بالعمر؛ تضرب !

ولكن كلام الشعراء لا يمرّ بلا تعليق . فقصيدة الشاعر الاولى مــا تزال حاضرة في الأذهان، وقد اطّلع عليها كل شاعر، فكيف يرضون بان يروا الفرصة تسنح دون ان ينتهزوها ويعيبوا على الشاعر تغيير رأيه بهذه السهولة ؟ لا . لن يتركوه ، ها هو صيّاح الاطرش ، ابن عمّ الشاعر ، يجيبه بقوله :

يالّلي تمنى بآخر العمر باكيت   تركي اهالي والسكاير مذهّب
يا صاحبي ، عذاب نفسك تمنّيت   من عفن شربه كود نفسك تعذّب
حتى جليسك ما طرب ، يوم عبّيت   لو كان دليله حين يلقاك يطرب
التتن يكت ناصح الجسم تبكيت ،   ينحل عظامه ، والمااليق تخرب
يا هيه، وان كنّك عشربه تشافيت   لا شك عقلك من دماغك تذهب
بآخر زمانك كود تغدي كما الميت   تسل ، ونارًا بجوانك تلهّب
ان طعت شوري قول : «عنّه استغنيت»   اترك حباله ولا بجيّه تقضّب
انصحك حيث اني بشربه تعانيت   شربه مضرّ ، ولا تجرّب مجرّب

وينبري له هلال عز الدين فيجيبه ايضاً :

يا هيه ، يامن تشتهي شرب باكيت   دخّان يبري النفس لنّو مذهّب
عضره سنطري سمّ بجشاك غليت ،   توحس آثاره بعد ما تصير تشرب
تضرب ايا ونّمها بعود كبريت ،   وحراق كبدك من لظى النار اقرب
عطره وريحه وندّها داخل البيت ،   لنّه كما حصن البعلبك يخرّب
مسه ونسمه وطعمها ان كان حسّيت   لذّه عواقبها كما السمّ واعطب
لو ان سيكاره بشف الفاه ذبّيت   فحّت انفاسك ريحة القبر، واكرب
شربه وقربه يدعي اخيّ كاليت   داء يفتّ الكبد كم عقرب
انفع طريقه للجسم كان سوّيت ،   صدرك وعاء دخّان منشان تطرب !
مبه على قنبك ، كما انير حطّيت ،   يبقى سناها وسط الانجاد تجرب
فحّه ونجمه وتاني الليل عوّبت ،   خسران عمرك دون ما شيء تكسب
لو ان نفسك عن هوى التتن عفّيت ،   ما كان ظهرك آخر العمر احدب
أسير نفسك لأحقر الناس دنّيت   شحّاذ كنّه ماكلا الزاد يكلّب.
قل للذي ينقاد للتتن : ولّيت !   أدبر زمانك ، وانت مملوك ؟ تضرب !
لو ان تنالل حاكم العدل يا ليت !   حكم على من يشرب التبغ : اجذب.

ولكن سليمان لا ينكسر وعنده من اساليب الشعر ما يؤمّن له الغلبة على اخصامه . ها هو يجيب على الاجوبة ويزداد بالتبغ شغفاً راميًا بوصفهم السعال (القحّة) وما اليه عرض الحائط قائلًا : (يخاطب هلال عز الدين)

يا شيخ ابو متعب ، ظلمت وتعدّيت   ورحتو تسبّوا المالكم حقّ ينسبّ
لايا عجب كيف ان تجرّأت ورضيت   تدوس الحَبق ، وتخلي المسك ينكبّ
لازم بانك ، يا فتى ، تكون داريت   باساً من الجنسين ، يا شيخ ، تشرب
جنس الاول طيّب الفال والصيت   اهل الرياسه ، وللسياسات تُنسب
« كون »[1] الذكي لو لايدخّن سيكاريت ،   ما كان لامراض الجبل ، يوم ، طَبّب
وكثار غيرُه يا فتى ، ان كان عدّيت ،   كرام اللحي ومع كل سيف مشطّب
والجنس الاخر يا فتى الجود آميت   عيون المَهَا هَلّي كما الورد واطيب
حطّوا الزمرّد عالصدور ويواقيت   وخدود تفّاح الصدر تَوْ قَبقَب
لو يَمّسُوها عالمباسم وراعيت   هَكْ الصباح اللي السكارات تغضب
خوفي عليك تكون مُغرم ، وجنّيت   يوم تشوف النور والنار تلهب
وما عرفت خدّه من سَنَا النار ، يا ليت ،   أيّاً لمع بين الاثنين اعذب
ماعجل كبرت وعادك الدهر ونسيت   هكّ الليالي اللي قضَيْتَه وانت شَبّ
ياما بذهبا وشربها فرحت وغويت !   وياما بمِلَبْهَا اللامعة كنت تطرب !
ياما سكرت! وعادك الفكر وصحيت   والليل داجي وريح غربي عَذِي هَبّ !
ونجوم في كبد السما ان كان كدّيت   تلمع كما نور السكاره وتشهب
اشرب وانفخ ، يا فتى ، عالعفاريت   ولّت ، ومع كل الشياطين تذهب
الكيف اصبح باليمن ، وانت امسيت   بقطب الشمالي ملوّع الفكر والقلب
يا شيخ ، خذلك صومعه ودشّر البيت   ولا عدت لحيّ النادير تقرب
وادعي لنا ، يا شيخ ، عالركن والبيت   ربّك كريم يسامح العبد لا ذنب !

فاجابه هلال عزّ الدين بقصيدة اشار فيها الى نهي سليمان الاطرش عن التبغ ومناقضته نفسه قائلًا :

يا بو حسن ، ما قطّ عمري تعدّيت   وسبّيت من هو ما به شيء ينسبّ .
ما هو عجب لو انني اليوم جرّيت   سيفًا على جيش الظلم حق ينصبّ
اما العجب تشبيهكم مسك باليت   للتبغ ، حين تشمّه الناس ينكبّ
اوجست ، انا المظلوم وان كان واريت   شيئاً على الجنسين نارًا تلهّب
ان كنت مغرم بالطف الجنس وغويت   ما لاق لي تابيس ضبيه جلد ضبّ
« كون » الحكيم اللي يدخّن سيكاريت   خالف نظام الطب من ذاك اغرب
« لقمان » مع ما بينهم من تفاويت   ما قال في علمه عن التبغ يُشرَب
ست النسا بلقيس وان كان عنّيت !   ام المسيح ، وعايشه ام يعرُب

---

[1] هو طبيب جرّاح كان رئيس الصحة والاسعاف العام بالجبل مدة طويلة واشتهر بمهارته الجراحية شهرة فائقة ، وكانت السيكارة لا تفارق شفتيه .

ما شرعوا للجنس، وان كان راعيت … بكتابهم ان الأنامل تخضبْ
بصبغةٍ تشداك دم المغاريت … وكبده على نار المجامر يعذّب
كم غيدةٍ قالت برايك تحدَّيت … غبدٍ طعم ملساهن شهد واعذب
الكيف ما هو شرب دخّان تعنيت … ونفسي على عكس الجسم دوم تغلب
إن كنت للجنسين بالقلب ودّيت … انصح لهم عن صالح الجسم يخرب
ما انتَ هَلِّي اول الناس شنّيت … غاره على التنباك بجدّ احدب ؟
بصفحة التاريخ سجلّت ، يا ليت … ما ناصرك مَن كان للحقّ اقرب
مع اوليا الشيطان حقًّا تباريت ، … والنصر كان بجانبك وانت تطرب
ما راغ من قولك عن البال، ونبت … بيت من الابيات شعرك وانت شبّ
مالي اراك اليوم عن ذاك شتّيت ، … وبلّجّة غرام التتن انت تندّبّ
ما عدت تذكر ما ذكرته لناميت ؟ … وتنصح لنا بصومعه نروح نتكبّ
وندعي لكم بداخل الركن والبيت … ان الإله يتوق نفسك الى الطب
وقلبك يوالي من له الحيّ والميت … خالق جميع الناس عالكون هو ربّ

وقد اطّلع السيد سلامه كرباج على هذه المحاورة الشعرية اللطيفة فانتصر لسليمان الاطرش وراح يكتب الى هلال عز الدين قائلًا :

البارحه ، ما طبّق الحجر بنماس … حيثه ذهبن ويودع القلب ما دلّ
يا هلال ، ثاري فكركم خربط الراس … قدرك رفيعًا والمنا يك ما زلّ
يا صاحبي ، اودعت بالقلب هوجاس … من قولتك ان التبغ آخرو يملّ
لا صار ما تطرب الى التتن : تحتاس … ولا ينجلي عنّك ترى همّ مع غلّ
افسدت اللّي خالطن بكل متراس … عشرين عامًا ، يا بو متعب، ولا كلّ
تطرب اليا شربت التتن حدّ محاس … برنوقةٍ بعد الغلي ماءها زلّ
ثاري التتن، ياشيخ، تطرب له الناس ، … عندك سكاير مبرمه وزاد في حلّ
إن طعتني، يا هلال، لو شربت لاباس، … لو تضغ الدخان عنك النثا قلّ
لا تعتني ، يا صاحبي ، بابيض الكاس … بساعةٍ يدعي ، ترى ، العقل يختل
هذا النبي ينهاه من دور عبّاس ، … إن اتّبعته دعيت للتتن يحتل
دخن الياصرت بنثا ويك وسواس … يفرج لك الله بساعةٍ ما بها ذلّ
الياصرت ترسم بالقلم فوق قرطاس … دخن سيكاره تشوف للقاف ينهلّ
ولا هو من اللّي يودعك فوق مقياس[1] … الياشربته للملا ما تذمّل !
يا هلال ، لاقيت التتن هو عسّاس ، … ولا صرت وحدك هو ترى الكلّ بالكلّ
واللي رميته ما يطابق بالمراس … حذراك عنه صويحبي ما يبطّل
ماني من اللي يشرب التتن بخلاس … ولاني من اللّي عالدّخاخين ينصلّ.

---

١) الخمر .

فيجيبه هلال بقصيدة اخيرة ينوّه فيها بسيطرة عقله على عاطفته وعدم اكتراثه لأقوال المتهمين والمتجنين ويختمها بهذه الحكمة التسليمية حسماً للنزاع :

لَعاد مَاني للمخاليق سَوَّاس ربّك حسيب الناس والكلّ باكلّ

وهكذا تنتهي هذه المحاورة الجميلة سنة ١٩٤٠، اي في اثناء هذه الحرب الصّاعقة . مما يدلّ على ان هذه الحرب لم تؤثر في سير الحركة الأدبية الشعرية عندنا ، إلّا عند شعراء السياسة الذين تركوا الشعر الى حين ، وراحوا يبحثون عن طرق التقدم والثراء شأنهم في ذلك شأن الانتهازيين في الدنيا .

التقليد والتكلّف في شعرنا الحديث

كنت ، في احد فصول هذا البحث ، قد اشرت الى ان شعرنا الحديث قد دخله شيء كثير من التقليد والتكلّف . ذلك ان شعراءنا الأحياء ، والمجاهدين الذين نزحوا الى الصحراء بنوع خاص ، صاروا ينظمون الشعر بمناسبة وبغير مناسبة . فيأتي شعرهم خالياً من ايّة نفحة شعريّة صادقة ينحصر في نظم ركيك ، سخيف ، فاتر ، تافه .

ولو انه خضع لمرّ الزمن وصقله لما وصل الينا منه إلّا جزء يسير جدًّا . واكثر هذا الشعر الانحطاطي رسائل متبادلة بين من هم شعراء ومن هم غير شعراء : فيأتي وصف الركاب والرسل والرسائل تقليديًّا بحتاً ، هو صورة مشوّهة لما يقابله من شعرنا القديم والمتوسّط . فالجناسات تتكرّر ، من غير ذوق ، والتعابير تتعثّر من غير حاجة ، والافكار تغدو صبيانية ساذجة . ونحن اذا استثنينا بعض القصائد المنظومة بغير مواضيع الترسّل والمدح، لا نجد شعراً يستحق البقاء في شعر فترة الاضطراب والانتقال التي عقبت الثورة . والاستثناء الذي ذكرناه يشتمل على كثير من القصائد ، والحمد لله . فلدينا قصيدة نظمها عدة شعراء من آل الاطرش دفعة واحدة وهم في النبك: فنظم كل واحدٍ منهم مقطعاً منها بمناسبة يوم ريح تلته ليلة كلها دخان وضيق ومطلعها :

غاري عجاج وزاد بالليل دخان وعيني على الحالين ترشح دمّاعه

— وهناك حتى في عالم الجناسات بعض ومضاتٍ من الشعر في شعر نجم العبّاس ، وسليم الدبيسي ، وعلي عبيد ، وزيد الاطرش ، وصالح عمار ، وهلال عز الدين وغيرهم ؛ وكثيرٌ من الشعر في شعر البدو الجبليين واخص منهم بالذكر : سردي ابو سَتاحه ، وسالم الخضير من قبيلة المساعيد ، وابو حرب السّردي من قبيلة السردية ، وعكيب العتّار من قبيلة الحَسَن ، وصبيح السرّاح من قبيلة السرعان .

الندب والنواح النسائيّان

قلت ان البكاء على الميت يُترك امره عندنا للنساء . فهؤلاء يتغنّينَ بنوعين من الشِعر الرثائي هما : « الندب » و« النواح » .

والندب والنواح يختلفان في الوزن واللحن فقط : فالندب يكون على الحان متعدّدة كالشعر اكثرها على وزن :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

غير ان التغنّي بالندب تنوّع النساء الحانه تنويعاً كثيرًا يقل فيه الذوق ويكثر التقليد .

والنواح يكون على مـا يشبه العتابا مع اضافة البكاء الضروري عند تلحينه والتغنّي به . وهذا الشعر كلّه لا جمال ولا طلاوة فيه إذا انت قرأته . وإن يكن لا يخلو من بعض الجمال الموسيقي اذا انت سمعته . وعلى ذكر العتابا نقول ان كثيرين من شعراء الجبل اجادوها في معرض البديهة اي بوصف حالة عـارضة . ولشبلي الاطرش ، واولاد الفهد ، واختهم ، فيها جولات موفّقة . ونحن نورد بيتاً لعلي نفّاع يدلّ على قوّة البديهة هذه .

وهو تاجرٌ شاب دخلت دكانه فتاة لتشتري فنادته بقولها « يا عم » فقال :

عيدك شوف ، يا ربّي عملهن بعز صباي نادوني : عم الهن
بجاه المصطفى ترسل عمى الهن، لما يحقّوا المشيب من الشباب !

اما الآن وقد عرضنا لأهم نواحي الشعر الجبلي العامي ، ورأينا ما فيه من صفات ، فلا بُدّ لنا من كلمة نقولها في الشعر الفصيح والنثر الفنّي وإن يكونا لا يزالان في المهد .

القسم الخامس

الشعر الفصيح والنثر الفني في الجبل

منذ عشر سنوات فقط ، بدأنا نرى في الجبل من حينٍ الى حين مقالة صحفيّة منشورة على شيء من الجمال والفنّ قليل . هي مقالات صحفية سياسية على الغالب ، مقالات مناسبات لا تكوّن ادباً بالمعنى الصحيح . قد يكون هناك مقالات مخطوطة كثيرة ، ولكن هذه المقالات لا تدخل ميدان البحث والنقد إلا متى نشرت . ولعلّي لا اغالي اذا نفيت وجود مثل هذه المقالات بالاطلاق .

فشبابنا يكتفي من الثقافة بجمع المعلومات من غير هضم ، ولا ينهي دروسه الثانوية او التكميلية على الغالب حتى يندفع وراء الكسب وينسى الكتب والكتابة . والنزعة السياسيّة التكسّبيّة تسيطر على فكر شبابنا سيطرةً مخيفة . لن تكون لنا مؤلفات ادبية حتى ولا مقالات ذات قيمة إلّا بعد زمنٍ طويل . اسجّل هذا آسفاً وانتقل الى تسجيل مثله تقريباً عن الشعر الفصيح :

سلامه عبيد

عندنا شاعر واحد ، اطّلع على سير الحركة الشعرية الحديثة في لبنان فسورية ، ونظم بضع قصائد تدلّ على شاعريّة صحيحة ، وهذا الشاعر هو الاستاذ سلامه عبيد ابن الشاعر الزجلي علي عبيد . ولا تغتر بقيمة شعره قلّته . فهو لا يأتينا بغير الجيّد منه . لأنه لا ينظم الشعر إلّا للشعر . وانت لو رأيته لَمَا شككت بانه شاعر لما هو فيه من النحول ورخامة الصوت . وهو لم يترك المدرسة إلّا من سنتين منع ذاته بعدهما للتعليم ، وهو من العنصر الطيّب النادر في معارف الجبل . كان في مدارس دمشق اولًا ثم انتقل الى الجامعة الوطنيّة في عاليه فاخذ يحنّ الى بردى ويعزي نفسه بجمال لبنان السّاحر فقال بعنوان : « ليتني انسى ! »

« ليتني انسى ! ولكن كيف لا اذكر الشام وسحر الربوتين ؟
واحاديث الهوى ربّانةً وتثنّي بردى والضفتين ؟

فإذا ما الليل ارخى ستره   وتلاشى كلُّ صوتٍ واندثر
وتمادى البدرُ في جوف السَّمَا ،   ورنا النجم بخوفٍ وحذر
واذا ما النهر ما بين الحصى   ردَّد الآهات ، والناب اقشعر
وتمشَّت نشوةٌ محمومةٌ   في عروق الليل ، واحلولى السَّمَر
اذكر الماضي وابكي بردى ،   وشذا الوادي ، واحلام السَّحَر
وزمانًا ، كُلَّما الليل هنا ،   هيَّجت ذكراه دمعي فانهمر.

. . .

قبل في العودِ عزاءٌ يُرتجى   فَلْيرنِم ، ولتشنِّف مسمعي
ولتشعشع ابنة العنقود ، في   حَلَكِ الليل ، كَذَوبِ الادمعِ
عَلَّها تبعث في جفني الكرى   نامت الشهبُ ولمَّا أهجَع
فناطقي القلب ، لمَّا لثمت   ابنة الكرم برفقٍ أضلعي
لحنُ العود وأبدى عجزه ،   وانثنى يبكي على الماضي معي
عذَّبتني ذكرياتٌ حلوةٌ   واستبدَّت بفؤادي الموجع

. . .

يا رُبى لبنان ، رفقًا وارحمي   وابعثي في خافقي نور الهدى
بعد ما ودَّعتُ عهدًا طيِّبًا   لم يزل في خاطري منه صدى
عصف البين باحلامي ، فلا   بسمةٌ رفَّت ولا عودٌ شدًا
جئت ، يا لبنان ، انسى ما مضى   فإذا بي قد تناسيت غدا
وإذا بي زهرة مهجورةٌ   لم تزل تعفو الى ذوب النَّدى
إنْ تكن تنسي روابي كوثرٍ   كيف تنسيني روابي بردى ؟

. . .

كفكف الدمع ، فقد هيَّجت في   هدأة الليل النجوم الساهرات
وابتسمْ للزهر ، وامرحْ في الربى   بين الحان المياه الشاديات
وابعث الآلام شعرًا مُلهَمًا   في الليالي الصافيات الساحرات
وَدَعِ الماضي وذكراه ، وكن   بسمةً ربًّا على ثغر الحياة
كيف تبكي ، والمنى معسولةٌ ،   رفرفت فوق الروابي الزاهرات
انت في لبنان ، في مهد المنا   فلِمَ الحزنُ وذرف العبرات

. . .

إن تكن ودَّعت وادي بردى   واحاديث الهوى والمفتتن
فهنا لبنان في روعته   جنَّة الدنيا ، وسحرُ الفاتنين.

ثم تراه يدعو بسمة الأمل الى العودة بقصيدة رائعة عنوانها : « عودي ! »
يقول فيها :

عودي مع الأطيار ، عودي ، يا بسمة الأمل الشرود
كادت تذوب حشاشتي ، وتقطّعت اوتار عودي

. . .

نثر الشباب على جبين الأرض احلاماً وسحرا
فتثاءبت ، وتمايلت ، واستيقظت تختال كبرا
لبست لجين البدر واتّخذت من الأزهار عطرا
فترنّمت زُمر الطيور ورفرفت في الجوّ ، تترى
وتراقصت بين الربى وعلى غصون الدوح ، سكرى
عادت تذيب الحبّ والإلهام في الأجواء شعرا
عودي مع الأطيار عودي !

مات الشتاء ، وعادت الأنهار تجري في الربيع
رقراقةً تنساب في الوادي وفي السهل الوسيع
قيثارةً حيرى على اغنى القطيع
والشهبُ راحت تستحمُّ بمائها المذب السريع
حاكت لأعطاف الحصى ثوباً من الخزّ البديع
فتقمّصت روح الشبيبة ، بعد ويلات الصقيع
عودي مع الانهار عودي !

رشفت شفاه الناب من ثغر الصباح لماءُ رشفا
فترنّحت نشوى ، وداعبها النسيم فكان عزفا
وتلألأ الطلُّ المذاب على كؤوس الزهر صرفا
والنرجس الوسنان ، بين شقائق النعمان ، أغفى
فتسلسل الوردُ الحسودُ وانعم الأجواء عَرفا
عادت زهور الروض فازدادت بها الارجاء لطفا
عودي مع الأزهار عودي !

أوَ تذكرين الناب في تلك الليالي الماديات
والبدرَ يبدو في السّما بين النجوم السافرات
وشذا الخزامى كلّما هبّت عليه الساريات
وصدى لُحُونَ العندليب على الغصون الباسقات
وتمايل النزّار في ذوب المياه الشاديات
عادتْ فَلِمْ لا ترجعين ، وانت اكسير الحياة
عاد الربيع ، ولم تعودي ، يا بسمةَ الأمل الشرود
كادت تذوب حشاشتي وتطلّت اوتارُ عودي

وليس سلامه عبيد اقلَّ بشاعرية عندما يخاطب الوان العَلَم السوري الاربعة. فمما يقوله للون الابيض :

انت فينا بقيَّةٌ من فخارٍ يوم رفرفتَ في يمين أُميَّه
تحمل الجحفل الخضمَّ الى النصر وللسيف غضبةٌ مضريه
فعلى الافق من حواشيك نورٌ وعلى الارض حلَّةٌ سندسيه
فإذا الشرق عزمةٌ ومضاءٌ وإذا الغرب جنَّةٌ عربيه
ذكر القوم إن تناسوا زمانًا حملوا فيه مشعل العبقريه
وابعث العزم في الشباب فمارٌ أن يلينوا وارضهم سوريه

— وللَّون الاسود :

أيها الخفَّاق عزًّا انتا لم تزل تعفو الى العهد السعيدِ
والذي يحمل نبراس الهدى زمنًا يأبى مجاراة العبيدِ

— وللَّون الاحمر راية الثورة العربية الكبرى :

رايةَ الاحرار إنَّا أمَّةٌ لا تطيق الذلَّ يسري في حماها
في ظلام اللحد تغفو حُرَّةً وتعاف النوم مرًّا مقلتاها

— وللَّون الأخضر راية الأمل :

من فنون الربيع ألبستَ بُردا عاطرَ النشرِ مستحبًّا مفدَّى
املٌ ينعش النفوس ويذكي في الحنايا عزمًا حميًّا ووجدا
كلُّ ما في الشباب من وثبة الفكر وحبِّ التجديد ثوبًا وعهدا
ماثلٌ فيك : فاخلع القاتم البالي وبدِّل بالشوك فلًّا وورددا
فحرامٌ ان ينشر الجهلُ ارضًا عرفتها العلوم إمًّا ومهدا
واطلب العيش في ظلال المواضي فالمواضي، من اجودِ القول، اجدى
والقويُّ القويُّ يسبح في الجوِّ طليقًا مستنسرًا مستبدًّا
والذي يعشق الحياةَ أُنوفًا في طريقٍ، وَعْرِ المسالك، جَدًّا

هذا بعض شعر سلامه عبيد الشاب. ولي فيه املٌ لا يقل عن الأمل الذي يراه في الأخضر من العلم السوري. ومن عرف كيف يتغذَّى بقوَّة الجبل وطُهره وبعده عن ترَّهات الحياة عرف ولا شك كيف يجود بالشعر الصافي يزخرُ قوَّةً واملًا وشبابًا .

علي سيف الدين القنطار

وعندنا شاعرٌ مُخَضرم هو صديقي علي سيف الدين القنطار ، الذي كان له الفضل في كثير من المعلومات التي جمعتها عن شعرنا العامي ، وشعرائنا الاقدمين والمعاصرين. وهو مخضرم لأنَّه ينظم الشعر الزجلي والشعر الفصيح في آنٍ واحد. وهو يميل الى الشعر الحكمي فيصف في قصيدة له زجليَّة انواع الرجال وينعى عليهم عـدم وفائهم وتسابقهم الى المنافع الخاصَّة ، تاركين المنافع العامَّة مهملة ناقة ؛ مع شعرٍ كثير سمعته ينشدني اياه فتبيَّنت صفاته العامَّة وهي : قوَّة الرجولة ، والجوُّ العبوس ، والتشاؤم المطلق . وهو في شعره الفصيح ينظم على طريقة الأقدمين من حيث جودة اللغة وعدم التجديد في الأوزان وطرق التعبير — ولكنه يطرق مواضيع جديدة كالحرب الحديثة ومطامع قادة الشعوب وما الى ذلك. وهو على كلِّ حال ، لا يزال شاباً. وقد يطلّ علينا يوماً بديوان له جامع لشعره العامي والفصيح معاً — فالشعر شعر لا فرق بين الفصيح منه والعامي والمنظوم منه والمنثور . واني مورِدٌ من شعره مثالين احدهما باللغة العامية والثاني باللغة الفصحى : وأثر الفصحى في شعره العامي ظاهر بعض الظهور :

افكر بحال الناس من كل الابواب	وارعى جم من دون سابق وجذاب
اشوفهم بفعالهم يشبهوا ذياب	منفره بحدوم ولبوس وزرار :
. هذا لاجل الثاني فايت رفيقه	وهذاك ، عند القصد ، بايق صديقه
الاول مطعون مشرق بريقه ،	واخوه طاعن لاجل غايات واسرار
والبعض باقي بلون صاحب وحباب	لكن عدو ويختفي تحت جلباب
ينطيك هرجاً مثل سكر وجلاب	والحال حيه لسها يجلب اخطار

. . .

يا ويل ناس تامنوا الغدر والبوق	وتعاونوا عاموتة الصدق وحقوق
صار البطل بيفيهم خلّ ممشوق	متنا ببينه ، وماخذين الكذب كار
الدين باد وما نفاله صرات ،	والكفر زاد وصار يوجد مع الذات
ما ظنتي نافى صفا بعد هيهات	طيراً بجدي بعد ما تنفر وطار

. . .

اللي تزعم صار بالمال ضائع	مرّه يجيه برفق مرات بخداع
ماضي على الثروات من قبل ما باع	وعيب على اللي بالرخص يرفع اسعار

واضحى الفقير بحالة الذل منام من خاض نفى الشر والشر من عام
ما لو خويّاً بالملا راعي ذمام ولا لو صديقاً يحفظ العهد وجوار

. . .

واللي يريد الكيف يحذر من الناس ، يصدف ويبعد عن طنابير واجراس
ياخذ من اللي جبة الصدق لبّاس يسلم من كباة المذلات وعثار
وان ما لقى خلّاً نصوحاً يخله من بعد ما يعرف مناحيه كلّه
حيث الكريم اخر ما يطيق ذله ولا يرتضي بيرفقة تجلب العار

وله في الشعر الفصيح من قصيدةٍ :

وليس وقوفي عن زهوق ، وانما وقفتُ وقوف الناقد المتألم
فما راعني الا تخنثُ فتيةٍ ، وازيائهم سبيل التقدم
توغل فيها ما استطاع مفاخراً فتاناً ، واضحى تابعاً كلّ محرم
براقص ربات التهتك عارياً فتجذبه كالمغنطيس المنوّم
وتسلبهُ عقلاً ومالاً ومنصباً فيصبحُ منها معدماً أيّ معدم

. . .

يقولون لي ان التمدن واجبٌ فيا عليه نتمد ، تتقدم !
وهيا انتظم ، ان شئت ، بين صفوفنا فنرقيك اسباب العلاء بسلم
وسر نحو باحاتِ المغاني ميمماً ففيها تجد نهج الرقي الميمم
هناك تجد سر الحياة مجسماً ، وناهيك من سر الحياة المجسم !
اوانس تلقاها تهادى جميلة تميس باثواب الغوى والتنعم
تميل على اهل الغرام بجيدها فتنزل منهم بين نحرٍ ومعصم
هناك ارتمن في منهج الرقص ترتقي الثريا فلا تسمو اذا لم تتمم

. . .

فيا شعبنا الراقي كفاك تقدما ! وقدك فقد افرطتَ في ذا التقدم !
فهلا تقدمنا بغير خلاعةٍ وهلا اكتسبنا غيرَ وزرٍ ومأثم !
يقولون هذا العصر عصرُ تمدنٍ وعلمٍ واداب ونجحٍ محتمٍ
فان كان بالعلم الخلاعةُ والغوى فلا بارك الرحمنُ في ذا التعلمِ !
وان كان بالجهل الاكيدِ رقينا ، فيا جهلُ ،عسكر في الربوع وخيّمِ !

الخاتمة

مستقبل الادب في الجبل

ليتني استطيع ان انهي كلامي عند هذا الحد فلا اعرض لمستقبل الأدب عندنا بقليل ولا بكثير . ذلك اني لا اعرف الخداع ولا احبُّ التمويه . اني لا اجد في الحاضر الذي امامي ما ينبئ بنهضة ادبية قريبة في الجبل . أو يكون اشتغالي وحدي بالأدب دليلًا على نهضة ادبيَّة ؟ أو يكون اقبال الناس على مطالعة الصحف اليومية دليلًا على نهضةٍ ادبيَّة ؟ كلّا لا هذا ولا ذاك . فاليد الواحدة لا تصفّق والكاتب الواحد يستطيع ان يهيئ جوًّا ادبيًا للمستقبل البعيد ولكنَّه لا يستطيع ان يخلق حياة ادبية شاملة في بلدٍ ما . فالإقبال على مطالعة الكتب الأدبية عندنا يكاد يكون منعدمًا ، وإن هو وُجد فيكون على الاقاصيص الغرامية التافهة ولا يتعدَّاها إلّا الى مؤلفات المنفلوطي وجرجي زيدان وما علمت ان هذه بامكانها ان تخلق جيلًا من الادباء . واذا ذكرت الى جانب ذلك عدم اكتراث الشباب عندنا — ولا ثقافة في الشباب — للحركة الأدبية في البلاد العربية ، وعدم اهتمامهم من الحياة إلّا بناحيتها المادّية الصرفة ، وتكالبهم على الوظائف الرسمية التي تبعدهم عن جهاد الحياة وعصاميتها — وجهاد الحياة وعصاميتها شرطان اساسيَّان في تكوين روح الخلق والابداع في الأدباء — إذا ذكرت هـذا اصبح عندي شبه يقين باننا لا نزال بعيدين من النهضة الأدبية بالمعنى الصحيح . واريد ان اذكر الى جانب هذا ، بل فوق هذا ، وقبل هذا ، أنَّ حاسَّة التجرُّد لا تزال تنقص اخواني الشبَّان في الجبل . فما عامت واحدًا منهم يستطيع ان يتغلَّب على عصبيَّته الأُسريَّة فيخرج من نطاق الحياة العائليَّة الضيِّق الى نطاق شعبي فسيح يستمدُّ منه الوحي ومادَّةً لأدبه ان كان عنده شيء من ذلك . فكيف تريد ان يكون لنا ادباء في شبيبة تعيش في مدارس بيروت ودمشق بجسمها وعقليَّتها الدرسيَّة فقط : فلا تتعلَّم فوق البرنامج الموصل الى الشهادة الملعونة شيئًا ، وتبقى روحها غارقة في بحر العنعنات العائليَّة

والطائفية والحزبيَّة القرويَّة التي تقتل الأدب والرجولة والطموح في نفوس الناس اجمعين ؟

كيف تريد ان يكون لنا ادبا. في شبيبة تتقاتل على الألقاب والمراتب ، وحق الدُّخول الى البيوت ، ووضع التوقيع في الأوراق بالدرجة المرموقة ، وهي لا تزال على مقاعد الدرس تجمع المعلومات عن ڤولتر وروسو ومونتسكيو والمتنبي وابي فراس وشوقي وسواهم ؟ فاذا كانت هذه الشبيبة لم تفد من درسها ، وهي بعد في مواطن الدرس بعيدة بعض الشيء عن الحياة الجبليَّة الخاصَّة ، فكيف بها بعد ان تعود لتنغمس في هذه الحياة حتى آذانها ؟

ولكني ما تعوَّدت ان استسلم لليأس كل هذا الاستسلام. وما زال عندي موضع لأمل واحد بانقلاب اجتماعي قريب يبدِّل ، بحياتنا الحاضرة القشوريَّة ، حياةً جوهريَّة جديدة يتفجَّر الأدب من جوانبها تدفُّق البطولة والخصب والشباب والطموح من جوانب هذا الجبل الذي تكسو سواده خضرة الربيع الشاملة كل عام لتذكيرنا انه لا يزال ينبوعاً للقوَّة والأمل والتجدُّد .



فهارس المشرق العامّة

تتناول

المجلّدات الاربعين

١٨٩٨ - ١٩٤٢

فهرس اول

باسماء المؤلفين

يتناول هذا الفهرس اسماء كتّاب المشرق جميعهم سواء أكانوا من اصحاب الابحاث ، او كاتبي الشذرات ، او المجيبين عن الاسئلة ، او ناشري المخطوطات القديمة ، دون نقد الكتب الجديدة وواصفيها ، الّا اذا كان النقد ظاهرًا بشكل مقالة او بحث مستقلّ.

ا

ب

د

ز

س

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ن

ملحق

